مقدمة : النفس المؤمنة

انتـقاء و تجميع العناصر المتميزة بالذكاء والشجاعة من الشـباب ، ثـم تربيتهـا تربيـة عميقـة شاملة صلبة : ركنان أساسيان في خطة الحركة الإسلامية .

وإنه - كما يقول أبـو الحسـن النـدوي - : " لا بـد مـن إنتـاج الرجـال الـذين يقومـون بالـدعوة ويديرون دفتها ، ويربون الرجال ، ويملئون كل فراغ . وكل حركة أو دعـوة أو مؤسسـة مهمـا كانت قوية أو غنية في الرجال فإنها معرضة للخطر ، وإنها لا تـلبث أن ينقرض رجالها واحـداً إثر آخر ، وتـفلس في يوم من الأيام في الرجال " [1].

- على الحركة الإسلامية أن تتفرس في نفسها :

ولكن هذه التربية ليست اكتيال جزاف ، فإن أخص خصائصها أنها تلبي نداء الحاجات المرحلية ، وتعالج الواقـع . وفـي كـل أدب أرشـد إليـه الإسـلام خيـر ، ولكـن طاقـة ذي النيـة الصـالحة محدودة ، فـواجب إقرار المفاضلة بين أجزاء هذا الخيـر ، والبـدء بمـا هـو أفضـل ، وبمـا يسـد حاجة المرحلة من بعد تشخيص النقص .

ذلكم هو الذي يوجب من بعدُ أن تتـفرس الحركة الإسلامية الحاضرة في نفسها فراسة خـبرة ، في خلوة تأمل ، فتحدد نقصها ، وتحصي رصيدها ، ليأذن الله أن تصدق فراستها الأخرى في الناس ، وتحكم طريقها في هذا التصارع العنيف ، كما قـال الزاهـد الحكيـم سـمنون – رحمـه الله – حين سئل عن الفراسة وحقيقتها ، فأجاب :

(إن من تـفرس في نفسه فعرفها : صحت له الفراسة في غيره و أحكمها) [2].

وإنه لمعنى رفيع يكشف عنه سمنون في هذه الحروف القليلة ، ويخولنا إياه ، لنتخذه منطلقاً لفراسة نقدية نصف فيها أنفسنا و نحدد نقصـنا ، ثـم تحويـل الفراسـة إلـى دراسـة نسـلكها ينابيع في صفوف الدعاة بإذن الله ، فيخرج بهـا دعـاة ، يصـدقون بالصـدق الـذي جـاءهم عـن ربهم ، و يحفظون أمره .

ولقد شهد التاريخ القريب لأجزاء الحركة بعداً عن الموازنـة فـي أسـاليب التكـوين والتربيـة ، وطغياناً في جوانب على جوانب أخرى ، فترى منطقة غلبة الجانب التعبدي وتـزكية النفـس ، وفي أخرى ترفاً فكرياً ، وفي ثالثة ولعاً بالمشاركة في أحداث السياسة اليومية ، فاختـــلفت الصياغات .

ومن حيثيات كثيرة يعرفهـا أهـل المعانـاة : بـدأ يتضـح الخـط الـتربوي المتكامـل المـوزون ، المستدرِك للنقص ، وتحددت ملامحه في غرس معاني :

- ❖ الحرص على الصلاة و تـثـبـيـت العقيدة .

---

[1] مذكارات سائح في العالم العربي 79

[2] تاريخ بغداد للخطيب 9/236 .

- والالتـزام بأدب الأخوة .
- و الفرح بالبذل و التعب اليومي .
- والشوق إلى الجهاد و الاستشهاد ، من دون تهور .
- والانضباط بالطاعة .
- و التـقـلـل من الدنيا وطلب الخِـفّـة .
- و ترقب الموت ونسيان الأمل الدنيوي .
- وحب الله تعالى ، في رجاء يضبطه خوف .
- و مفاصلة الذين كفروا والذين نافـقوا .
- والصبر على المحن .

فمن تحقق في هذه المعاني فهو الصلب الذي يصح أن يعتمد ضمن القاعـدة الصـلبة للحركـة الإسلامية .

وهذه الفصول مخصصة لبيـان بعـض هـذه المعـاني و التـذكير بهـا ، مـن خلال مـواعظ ترقـق القلب ، وتعين النفس على اكتشاف الطريق الصحيح ، وتؤنسها إذ هي ماضية فيه ، فإن مَدار حركات هذه الحياة متصل بمحور النفس المترددة بين التــقوى و الفجـور ، إن صـلحت : كـان لها ظل وارف يهب الأمن لصاحبها ، و مُتسعاً للآخرين ، في امتداد بمقدار هـذا الصـلاح . وإن فسدت : كان ثَمّ اضطراب ، و جحيم من القلق .

فمن أجل التـنبيه على جمال النفس المؤمنة و الحث على الاقتداء بِسَمْتِها : جاء هذا الكتاب .

ويعجبني جداً وصف الشاعر التونسي أحمد المختار الوزير للنفس البريئة ، ورمـز لهـا رمـزاً ، جعلها كأنها فراشة ، واقترب كل الاقتراب من إدراك كمال الحقيقة ، تسـوقه فطرتـه إلا أنـه لم يمسكها ، وفاتَه أنه يصف النفس المؤمنة بأبلغ مما وصفها غيره ..

إنها تأسره إذ هي :

ساكنة ، في صَمتها ، أبْيَنُ ممّن يَنْطقُ

هكذا هي السيماء الإيمانية : وداعة ، و تفكّر ، و تأمل هادئ ، في إقلال من الكلام ، وبعد عــن اللغو ، ولكن تحوطها هيبة مؤثرة ، وجَمال بليغ مفصح .

و إن وَنَتْ وَقْفَتُها : أعْجَلَها المنطلَقُ

فالوقفات سُنة من سنن الحياة ، وقدر مقدور علـى البشـر ، إلا أنهـا عنـد المـؤمن لـن تكـون استرخاءً وغفلةً و تمادياً أبداً ، بل هي تعتري برهة ، ثـم تُجْليهـا محفَّـزات كامنـة ، مـن رصـيد ذاتي مجموع أو تراث حكمة مركوز .

لكن الشياطين تعترض ، تحاول عرقلة هذا المنطلق ، توهم صاحبه ، وتضـع العوائـق الثــقال في صور مـن الزينـة ، لهـا بهـرج ، و تـألق ، و بريـق ، تغـش النفـس الهائمـة ، ولكـن النفـس الملهَمة ، التي أُلهمت إيمانها ، ترى ما وراء ذلك من حقائق تفضح ما خفي من كبرياء مفتعلة ، أو حسد موسوِس ، أو صدارة متأخرة ، أو حب زيادة مال زائل . فذلك هو حوم الفراشة حول ومضات صورتها على سطح البحيرة .

أو هي تجربة النفس المؤمنة ..

لكم رأت خيالَها ، ماجَ به المنْبَثَقُ
كأنه النجمُ يرفُّ ، والمياه الأفقُ
فحوَّمَتْ ، ترنوا ، تَودّ لو به تّعْتّلِقُ
و أَوشكتْ ، لو لم تُفِق ، يقضي عليها الغرَقُ
لكنها مؤمنة ، هيهات ، لا تستحمِقُ
بين الضلال والهدى : يبدو لها المفترَقُ

نعم هكذا : المفترق واضح ، والاقتراب يفضح الصورة ، ويزيد الوضوح وضوحاً ، ويبين أنّ ما ظنته النفس تألقاً من على بُعد إن هو إلا اهتزاز .

ولكن كيف النجاة مع هذا الاقتراب من موجة عالية تفجأ ، فتترك بَلَلاً يُثقِل ، إن لم يكن الغرق المتلف ؟

من هنا وجبت الموعظة ، وانبغى التحذير ، في كلام كمثل هذه الرقائق ، كي لا تهبط النفس المؤمنة ، إذ آمنت ، بشيء من رذاذ الاقتراب ، بل حياتها في السمو ، و نجاتها في العلو .

إنها قطعة من البيان نادرة أتى بها الشاعر ، و أهداها الناشئة ، لكنها حكمة المنتهين .

وليس ذلك بمستغرب في عرف الحكمة الإسلامية ، فإنها أبدية الصواب ، ليس لها مرحلة متطورة جاءت من بعد سذاجة و تخلّف ، لكنها كما تصلح انتهاء : كانت تصلح توسطاً ، وصلحت ابتداء ، مع بدء الحياة البشرية ، وآية ذلك أن التوحيد أُوحي إلى آدم عليه السلام ، بدءَ الحياة ، وكان نبياً ، و أُلهمت التقوى إلى هابيل ، فكفَّ يدَه .

فانظر إشراقة القلب ولطف الإحساس في هذا الرمز المفصح عن طبائع النفس الزكية ، وانظر بمقابلة غلظ حجاب قلب شاعر ملحد يدعو إلى البهيمية ..

إنما العيشُ في بهيمة اللذة ********** لا ما يقوله الفلسفي
حكمُ كأس المنونِ أن يتساوى **** في حساها الغبي و الألمعي
و يصير الغبي تحت ثرى الأرض **** كما صار تحتها اللوذعي
فسل الأرضَ عنهما إن أزال **** الشكَّ و الشبهةَ السؤالُ الخفي

وواضح هنا أن هذا الملحد أشار إلى أن المعاني الحقة هي قول الفلسفي ، لا قول الواعظ المسلم ، ليتجنب في ظنه ما قد يكون من اتهامة بالمروق عن الدين .

قال أبو حيان التوحيدي : سمع أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني المنطقي هذه الأبيات فقال : " هذا النمط مفسدة للشباب الأغرار ، الذين ليست لهم بصيرة في الأمور ، وهم عبيد الاحساسات الوافدة بالعادات الفاسدة ، والاعتقادات الرديئة بتلقين قرناء السوء ، وقائل هذا قد عاند الدين ، وخلع ربقة الحياء ، و افصح عن الفساد ، وصَدّ عن الحكمة ، و قدح بزند الشبهة في النفوس الضعيفة ، والعقول الخفيفة .

يا مسكين : أَمِن أجل أن الصالح و الطالح و العالم و الجاهل صاروا تحت التراب : يتساوون في العاقبة ؟

أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد ، فلما بلغوا المقصد : نزل كل واحد في مكان معداً له ، وتُلقي بغير ما يُلقى به صاحبه ؟

أما دخل قوم داراً فأُجلس كل واحد منهم في بقعة بعينها وقوبل هذا بشيء و هذا بشيء آخر ؟

ثم تقول : سل الأرض عنهما ؟؟

قد سألنا و خبرتـــنا : أنهـا ضـمت أجسـادهم و جثثهـم و أبـدانهم ، لا كفرهـم و إيمـانهم ، و لا أنســابهم و أحســابهم ، ولا حكمتهــم و ســفههم ، ولا طــاعتهم و معصــيتهم ، ولا أقــوالهم وأفعالهم ، ولا يقينهـم و شـكهم ، ولا زهـادتهم و تسـبيحهم ، ولا معرفتهـم و توحيـدهم ، ولا خيرهم و شرهم ، ولا جورهم و عدلهم " .

وفي مثل هاتين القطعتين من الشـعر ، وفـي التعقيـب الـذي عليهمـا ، تتضـح بعـض جـوانب المعركة الدائمة بين الإيمان و صور الضلال.

وفي مثل هذا الكتاب مواعظ ، و إخبات ، وزيادة يقين .....

1- تسبيح يَشدّ الملك

دعوة تريد أن تستـقيم إلى الله .
فعليها أن تدلف من باب الاستـقامة إذن . وبابها المحراب .
وهكذا ، فإن على الدعوة الإسلامية في كـل وقـت أن تبـدأ عملهـا مـن المسـجد ، فتصـلح العقيدة ، وتعلم دعاتها أدب التعامـل الإسـلامي ، وبـذلك تسـقط تـلقائياً كـل المقـاييس الأخرى في التـفاضل ، من جودة الكتابة ، و بلاغة اللسان ، و بهرج الشهادات الجامعية .
وإنما جماع الخير في ارتياد المسجد ، وذخيرة المسـجد نعـم زاد الانطلاق . ولقـد أحصـاها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال :
" من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثماني خصال :
آية محكمة
و أخاً مستفاداً
و علماً مستطرفاً
و رحمة منتظرة
وكلمة تدله على هدى ، أو تردعه عن ردى . وترك الذنوب حياء ، أو خشية "[1]
" فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحـدة الطـاهرة المصـححة لكـل مـا يزيـغ بـه الاجتماع . هو فكر واحد لكل الرؤوس ، ومن ثم فهو حل واحد لكل المشاكل . وكمـا يشـق النهر فتـقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم , يقام المسجد فتـقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله " [2].
" فما المسجد بناء ولا مكاناً كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصـحيح للعـالم الـذي يمـوج من حوله و يضـطرب ، فـإن الحيـاة أسـباب الزيـغ والباطـل والمنافسـة والعـداوة والكيـد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد ، إذ يجمـع النـاس مـراراً فـي كـل يـوم علـى سـلامة الصدر ، وبراءة القلب و روحانية النفـس ، ولا تـدخله إنسـانية الإنسـان إلا طـاهرة منزهـة مسبغة على حدود جسمها من أعلاه و أسفله شعار الطهـر الـذي يسـمى الوضـوء ، كأنمـا يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخول المسجد) [3].
ولقد تـفاعل الموفقون مع هذه الأعطيات التي تمنحهم إياها مساجدهم ، فولعـوا بهـا ، و شدوا إليها شداً أنطق الشاعر بالصدق فوصفهم بأنهم :

يمشون نحو بيوت الله إذ سمعوا ** (الله أكبر) في شوق وفي جذل**
أرواحهم خشعت لله في أدب ** قلوبهم من جلال الله في وجل**
نجواهم : ربنا جئناك طائعة ** نفوسنا ، وعصينا خادع الأمل**
إذا سجى الليل قاموه و أعينهم ** من خشية الله مثل الجائد الهطل**
هم الرجال فلا يلهيهم لعب ** عن الصلاة ، ولا أكذوبة الكسل**

---

[1] عيون الأخبار لابن قتيبة 3\3 .
[2] للرافعي في وحي القلم 1/358-357 .
[3] نفس المصدر السابق

ثم ما برح أئمة الموفقين يلحون في التوصية بذلك ، ابتداء بالصدر الأول ، كمثل عبد الله بن المبارك حين يقول :

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله **** إذا كنت فارغاً مستريحاً

و إذا هممت بالنطق بالباطل **** فاجعل مكانه تسبيحاً [1]

و انتهاء بقادة الدعوة في هذا القرن ، كمثل الإمام البنا حين يوصي أن :

" أيها الأخ العزيز :

أمامك كل يوم لحظة بالغداة ، ولحظة بالعشيّ ، ولحظة في السحر ، تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملأ ، فتظفر بخير الدنيا والآخرة . وأمامك يوم الجمعة وليلتها تستطيع أن تملأ فيها يديك و قلبك وروحك بالفيض الهاطل من رحمة الله على عباده ، وأمامك مواسم الطاعات وأيام العبادات وليالي القربات التي وجهك إليها كتابك الكريم ورسولك العظيم ، فاحرص على أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين ، ومن العاملين لا من الخاملين ، واغتنم الوقت ، فالوقت كالسيف ، ودع التسويف فلا أضر منه " [2]

وكمثل الإمام بديع الزمان سعيد النورسي حين يخاطبك و يقول : " رُكِّبتَ من القصور والفقر والعجز و الاحتياج ، لتنظر بمرصاد قصورك إلى سرادقات كماله سبحانه ، وبمقياس فقرك إلى درجات غناه و رحمته ، و بميزان عجزك إلى قدرته و كبريائه ، ومن تنوع احتياجك إلى أنواع نعمه و إحسانه .

فغاية فطرتك هي العبودية .

و العبودية أن تعلن عند باب رحمته قصورك بـ(أستغفر الله) و (سبحان الله) .

و فقرك بـ (حسبنا الله) و بـ (الحمد لله) ، و بالسؤال . و عجزك بـ(لا حول و لا قوة إلا بالله) و بـ (الله أكبر) ، و باستمداد .

فَتُظْهِر بمراتب عبوديتك جمال ربوبيته " [3]

و كمثل الإمام المودودي – رحمه الله – حين يتحدث عن بعث الرسل عليهم السلام لتحقيق غاية العبودية في الأرض ويقول : " انظروا قليلاً في ما تحرّى النبي صلى الله عليه وسلم من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية ، فقد قام بدعوة الناس – أولاً و قبل كل شيء – إلى الإيمان ، و أحكمه في قلوبهم ، وأتقنه على أوسع القواعد و أرحبها ، ثم نشأ في الذين آمنوا تعليمه و تربيته طبقاً لمقتضيات هذا الإيمان تدرجاً بالطاعة العملية – أي الإسلام – و الطهارة الخلقية – أي التقوى – و حب الله والولاء له – أي الإحسان . ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة و استبدال نظام صالح به ، قام على القواعد الخلقية و المدنية المقتبسة من القانون الإلهي المنزل من الرب تعالى . ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنوا ولبوا دعوته من كل وجهة – بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم – مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي ، وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك

[1] طبقات الشافعية للسبكي 1/286

[2] مجلة الدعوة في دورتها الأولى عدد 8 سنة 1951م .

[3] المثنوي العربي لبديع الزمان نورسي 283 .

العمل الذي ينبغي لعباد الله المخلصين الأوفياء أن ينصرفوا إليه إذن ، وبعد كل ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين من الآداب والعادات المهذبة في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام و الجلوس ، وما إلى ذلك من الشؤون الظاهرة . وكأنني به فتن الذهب و نقاه من الأوساخ و الأقذار أولاً ، ثم طبع عليه بطابع الدينار ، ودرب المقاتلين أولاً ، ثم كساهم زي القتال . وهذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب كما يبدو لكل من تأمل القرآن و الحديث و تبصر فيهما "[1]

- **أجب نبيك صلى الله عليه وسلم**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من تطهر في بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطوتاه أحدهما تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة) [2]

وقال : (من غدا إلى المسجد وراح أعدّ الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح) [3]

وقال : (أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى ، و الذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام)[4]

و عن جرير رضي الله عنه قال : (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة) [5]

و سأله ابن مسعود : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : (الصلاة على وقتها) [6]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها و خشوعها و ركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأتي كبيرة ، و كذلك الدهر كله) [7]

وكانت آخر ابتسامة للنبي صلى الله عليه و سلم في الدنيا : ابتسامته للصلاة ، و ذلك لما كشف ستر الحجرة يوم الإثنين فرأى أبا بكر يؤمّ الصفوف .

وحث على صلاة الفجر وصلا ة العشاء فقال : (من صلى البردين دخل الجنة) [8]

وقال – وقد نظر إلى البدر - :

(إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس و قبل غروبها فافعلوا . ثم قرأ : { وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب }[9]

---

[1] الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية 72 .
[2] صحيح مسلم 2/131 .
[3] صحيح البخاري 1 /157 .
[4] صحيح البخاري 1/ 159 .
[5] صحيح البخاري .
[6] صحيح البخاري .
[7] صحيح مسلم 1/142 .
[8] صحيح البخاري 1/137 .
[9] صحيح البخاري ا /137 .

وقال : (الذي تـفوته صلاة العصر كأنما وُتِرَ أهله و ماله) أي فقدهما ، وفي لفـظ :(مـن ترك صلاة العصر فقد حبط عمله) [1]

فأنت أيها الداعية ما بين ترهيب ينذرك النبي صلى اللـه عليـه و سـلم فيـه حبـوط العمـل وترغيب يشوقك فيه إلى قصور الجنة و رؤية الله فيها ، فأجب ، و إنه لثمن يغري و يطمـع و يحرص عليه قبل الكساد ، وكن عند حسن ظن الفضيل ابـن عيـاض فـإنه تحـدى وقـال : (ما حليت الجنة لأمة ثم لا ترى لها عاشقاً) ، عاشقاً يخرج من أجلها فـي الـبردين ، وقـل له : إني أنا العاشق .

فإن وجدت من نفسك ثقلاً و تكاسـلاً فهنـاك مخاطبـة لطيفـة يمكـن لـك أن تخـاطب بهـا نفسك فتـقول : هب أنك من العسكريين ، أو من عمـال المخـابز ، أو الصـيادين أو .. ، أمـا كان يجب عليك التبكير في الاستيقاظ قبل الموظف و الطالب طاعة للنظام العسكري أو تـنافساً في طلب الرزق ؟ فالله سبحانه أحق أن يطاع ، وصلاة الفجر أحق أن ينافس فيها . فبمثل هذه المخاطبة لنفسك يحصل الحث لها إن شاء الله إن تراخت واستأنست بـالنوم .

و إذا ألممت بذنب أو خطأ فاستدرك بـالركوع ، فـإن داود عليـه السـلام لمـا جـاءه الخصـم يختصمان في النعاج انتبه و استدرك و وصف الله تعالى انتباهه فقال : { وظن داود أنمـا فتـناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك) [2]

فجعل الاستغفار و الركوع طريقة ، يعلم بذلك الدعاة أن يركعوا .

- حرص الأولين على الصلاة

وكان السلف الصالح يستحبون الأناة في كل شيء ، إلا فـي الصـلاة ، فقـد قيـل للأحنـف بـن قيس رضي الله عنه : (إن فيك أنـاة شـديدة) فقـال : (قـد عرفـت مـن نفسـي عجلـة فـي صلاتي إذا حضرت حتى أصليها) [3]

وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له : (الصَفّي) ، لأنه كـان يلـزم الصـف الأول فـي مسجد البصرة خمسين سنة [4].

و مثله : إبراهيم بن ميمون المروزي ، أحد الدعاة المحدثين الثقات من أصحاب عطاء بن أبـي رباح ، وكانت مهنته الصـياغة و طـرق الـذهب و الفضـة . قـالوا : (كـان فقيهـاً فاضـلاً ، مـن الآمَّارين بالمعروف . وقال ابن معين : كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يردها) [5].

وقيل لكثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط وقد أمَّ أهل حمص سـتين سنة كاملة ، فقال : " ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله " [6]

---

[1] صحيح البخاري 1/137 .
[2] سورة ص آية 24 .
[3] طبقات ابن سعد 7/96 .
[4] تهذيب التهذيب 1/173-447
[5] تهذيب التهذيب 8 / 424 .
[6] المصدر السابق .

وقال قاضي قضاة الشام سليمان بن حمزة المقدسي ، وهو من ذرية ابن قدامة صاحب كتاب المغني : " لم أصلّ الفريضة قط منفرداً إلا مرتين ، وكأني لم أصلهما قط " [7]
مع أنه قارب التسعين .
و الداعية السعيد من يتأمل و يقتدي .

- **دعوة تتعلم من داود**

وكان داود عليه السلام يسبح بالعشيّ و الإشراق ، فسخر الله تعالى الجبال يسبحن معه ، وقال : { إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي و الإشراق } ، فوهبه الله هبة عظمى ذكرها فقال : { وشددنا ملكه } [2]
و دعوة تدعي أنها إسلامية لا يشد ملكها اليوم و تغلب مالم يسبح رجالها بالعشي و الإشراق .
وإن التواصي بالصلاة لحسنة نقترفها يزيد الله لنا فيها حسناً ولا بد لنا أن نجعلها كلمة باقية في عقبنا من أجيال الناشئة الجدد ، فإن لم نفعل ، فإن عقد الدعوة سينفرط – لا سمح الله – انفراطاً ما له من فواق .

---

[7] ذيل طبقات الحنابلة 2/ 365 .
[2] سورة ص آية 20 .

2- الدقائق الغالية

سجود المحراب ، واستغفار الأسحار ، و دموع المناجاة : سيماء يحتـكرها المؤمنون .
ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار ، والنساء ، والقصر المنيف ، فإن :

- **جنة المؤمن في محرابه [1]**

ولقـد منَّ الله على الناس بكثير من المباح الحلال يفند الرهبانية ، ولكن المؤمن له لـذة كلمـا توجه إلى ربه بصفاء روح ، تتضاءل بجانبها لذة المباح ، فيهجر الكثير منه حذراً من كـدر يعكـر الصفاء الذي هو فيه .
جرب ذلك المؤمنون قديماً ، زمن العيـش البسـيط ، وجربـه المؤمنـون اليـوم ، زمـن المدنيـة المعقدة .
بل إن الصلاة في يوم هذه المدينة لأظهر في إضفائها السرور ، فبينمـا يطيـل التعقيـد علـى الإنسان حياته الحاضرة ، فيسأم ، ويمل ، و يضجر ، تختصرها الصلاة إلى بضع ساعات فحسب ، فيعيش في اطمئنان ، وراحة بال ، ولئن كان لنظرية آينشتاين في نسبية الوقت نصيب مـن الصحة ، فإن في الصلاة هذا النصيب ، كما يشرحه مصطفى صادق الرفاعي و يقول :
" يا لها حكمة أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات ، لتبقى الـروح أبـداً إمـا متصلة أو مهيأة لتتصل ، ولن يعجز أضعف الناس مـع روح الـدين أن يملـك نفسـه أنـه متـوجه بعدها إلى ربه ، فخاف أن يقـف بين يديه مخطئـاً أو آثمـاً ، ثـم هـو إذا ملـك نفسـه إلـى هـذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضـة الأخـرى ، وأنهـا بضـع سـاعات كـذلك، فلا يـزال مـن عزيمـة النفس و طهارتها في عمر على صيغة واحدة لا يتبدل ولا يتغير ، كأنه بجملتـه – مهمـا طـال – عمل بضع ساعات " [2]
فطول الحياة نسبي .. هو طويـل جـداً ، مخيـف مظلـم للجـاهلي .. وهـو قصـير ، هيـن منيـر للمصلي .
وحياة الجاهلي ركود مستمر . و حياة المصلي حركة ، تـزيد صواباً ، أو تستدرك اعوجاجاً .
و إنها (الله أكبر) تـنهي هذا الركود ، و تؤسس الحركة (الله أكبر) .
بين ساعات و ساعات من اليوم ترسل الحياة في هذه الكلمة نداءها تهتف : " أيهـا المـؤمن : إن كنت أصبت في الساعات التي مضت ، فاجتهـد للسـاعات الـتي تتلـو . و إن كنـت أخطـأت فكـفّـر ، وامح ساعة بساعة " [3]
وأظهر حركة يولدها التكبير : حركة التمييز و الفرقان ، بين أولياء الرحمن و أولياء الشـيطان .
فـإنك إن قـلت : { اهـدنا الصراط المستـقيم * صراط الذين أنعمت عليهـم غيـر المغـضوب عليهم ولا الـضالين }

---

[1] شطر لوليد في مجلة التربية الإسلامية 7/ 637 .
[2] وحي القلم 1/359- 364 .
[3] وحي القلم 1/359 - 364

استشعرت في كل ركعة طائفة من هذه الأصناف الثلاثة ، و تخصص كل ركعة لمن ظهر منهم في زمن واحد ، أو بلد واحد ، فتجول في ركعات يومك بلاد الإسلام أجمع ، وتستعـرض تاريـخ الإسلام أجمع .

ففي ركعة تذكـر النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الأطهار رضي الله عنهم مثلاً لمن أنعـم الله عليهم ، و تذكر أبا جهل ومسيلمة مثلاً للمغضوب عليهم والضالين .

وفي ركعة أخرى تذكر هوداً وصالحاً - عليهـم السـلام - مثلاً ممـن أنعـم اللـه عليهـم ، وعـاداً وثمود من الهالكين .

وفي ركعة أخرى تذكر الحسن البصري وابن سيرين و ابن المسيب ممن أنعم اللـه عليهـم ، و أهل الردة ، و الجهم بن صفوان ، و الجعد بن درهم من المتخبطين .

وفي أخرى تذكر الإمام أحمد بن حنبل ورهطه مـن المحـدثين المـوفقين، وبشـراً المريسـي وابن دؤاد من الظالمين .

وفي أخرى تذكر ابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي من المصلحين ، وأصحاب وحـدة الوجـود والفناء الموهوم و الشطح والابتداع من المدلسين .

وفي أخرى تذكر الإمام البنا وعودة وسيد ، وثباتهم أمام الطغاة المتجبرين .

وبذلك تعـقـل صلاتك ، والمرء ليس له من صلاته إلا ما عـقـل منها ، و تجدد عهدك مـع أجيـال المؤمنين ، وتـنبذ المفسدين ، وتـلك هي حركة الإيمان ، فإن الإيمان الحق ما أخذ منك الـولاء ، وتركك على المفاصلة .

- رجال مدرسة الليل

ولكن تمام التذكر يكون مع الهدوء والسكون .

فمن ثم كانت مدرسة الليل .

وكان ترغيب الله للمـؤمنين أن يجـددوا سـمت الـذين {كـانوا قليلاً مـن الليـل مـا يهجعـون * وبالأسحار هم يستغفرون} وإذا انتصف الليل ، في القرون الأولى ، كانت أصـوات المـؤذنين ترتفع تـنادي :

يارجال الليل جدوا **** رب صوت لا يرد

مـا يـقـوم الـلـيـل إلا **** مـن لـه عـزم وجِـدُّ

و إنها حقاً لمدرسة ، فيها وحدها يستطيع رجالها أن يذكوا شعلة حماستهم ، وينشـروا النـور في الأرجاء التي لفتها ظلمات الجاهلية .

و إنها تجربة إقبال يوجزها فيقول :

نـائح والـلـيـل سـاج سادل **** يـهجـع الناس و دمـعي هـاطل

تصطلي روحي بحزن وألم **** ورد (يا قوم) أنسي في الظلم

أنـا كالـشـمع دمـوعي غـسـلي **** في ظلام الـلـيـل أذكي شعـلي

مـحفـل الناس بـنوري يشـرق **** أنـشر النور و نـفسي أحرق [1]

[1] ديوان الأسرار و الرموز 79 .

و إن دعوة الإسلام اليوم لا تعتـلي حتى يذكي دعاتها شعلهم بليل ، ولا تشرق أنوارهـا فتبـدد ظلمات جاهلية القرن العشرين مالم تلهج بـ(يا قيوم) .

ما نقول هذا أول مرة ، وإنما هي وصية الإمام البنا حين خاطب الدعاة فقال :

" دقائق الليل غالية ، فلا ترخصوها بالغفلة " [1]

أفعيينا أن نعيد السمت الأول ، أم غرنا اجتهاد في التساهل و التسيب و الكسل جديد ؟

إن القول لدى الله لا يبدل ، ولكنا أرخصنا الدقائق الغالية بالغفلة ، فثقـل المغرم ولـم يجعـل الله لنا من أمرنا يسراً .

إن انتصار الدعوة لا يكمن في كـثرة الـرق المنشـور ، بـل برجعـة نصـوح إلـى العـرف الأول ، ومتى ما صفت القلوب بتوبة ، و وعت هذا الكلام أذن واعيـة : كـانت تحلـة الورطـة الحاضـرة التي سببتها الغفلة المتواصلة .

ذلك شرط لا بد منه .

و كأن النصر حجب عنا لأننا نادينا من وراء الحجرات ، وجهرنـا رافعيـن أصواتـــنا نـوجب علـى الله لنا هذا النصر بادلال ، نبيعه و نثبت لنا حقاً عاجلاً في الثمن مـن دون أن نقـدم بيـن يـدي بيعنا همساً في الأسحار ، ولا الدمع المدرار ، و إنما النصر هبة محضة ، يقر الله بها عيـن مـن يشاء من رجال مدرسة الليل في الحياة الدنيا ، ولا يلت الآخرين المحصـرين مـن ثمنهـم فـي الآخرة شيئاً ، ويوقع أجرهم عليه .

إن تعلم الإخلاص ، وفضح الأمل الكاذب الدنيوي أجلى أعطيات مدرسة الليل ، كما يقول وليد ، وذلك ما توجب تربيتـنا تركيزه وتعميقه في النفوس . قال ، والحق ما قال :

ياليل قيامك مدرسة **** فيها القرآن يدرسني

معنى الإخلاص فألزمه **** نهجاً بالجنة يجلسني

و يبصرني كيف الدنيا **** بالأمل الكاذب تغمسني

مثل الحرباء تلونها **** بالإثم تحاول تطمسنى

فأباعدها و أعاندها **** و أراقبها تتهجسني

فأشد القلب بخالقه **** والذكر الدائم يحرسني [2]

وأكثر من هذا فإن من يتخرج في مدرسة الليل يؤثر في الأجيال التي بعده إلى ما شـاء اللـه ، والمتخلف عنها يابس قاس تـقسو قلوب الناظرين إليه، والدليل عند بشر بن الحارث الحافي منذ القديم ، شاهده وأرشدك إليه, فقال :

" بحسبك أن قوماً موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وأن قوماً أحياء تـقسو القلوب برؤيتهم " .

فلم كان ذلك أن لم يكن ليل الأولين يقظة ، وليل غيرهم نوماً ؟ ونهـار الأوليـن جـداً ، ونهـار الآخرين شهوة ؟

- أتسبقك الحمامة ؟

وإنه لقـلب رقيق قلب الفقيه الزاهد أبي سهل الصعلوكي ، يظهره تأنيبه لنفسه في قوله :

---

[1] مجلة الدعوة في دورتها القديمة عدد 63 .

[2] أغاني المعركة 38 .

أنام على سهو و تبكي الحمائم ** وليس لها جرم ومني الجرائم**

كذبت لعمرو الله لو كنت عاقلاً ** لما سبقتـني بالبكاء الحمائم [1]**

فإن الذنب لا يغسل إلا بدمع ، و الشجاعة تسقى بدموع الليل ، وما عرف تاريخ الإسلام رجاله إلا كذلك ، ولم يقل ابن القيم باطلاً في وصفه لهم بأنهم :

يحيون ليلهم بطاعة ربهم ** بتلاوة ، وتضرع و سؤال**

وعيونهم تجري بفيض دموعهم ** مثل انهمال الوابل الهطال**

في الليل رهبان ، وعند جهادهم ** لعدوهم من أشجع الأبطال**

بوجوههم أثر السجود لربهم ** وبها أشعة نوره المتلالي [2]**

و سَأَلَ عبد الوهاب عزام الليل عن أروع أسراره ، فأبان جوابه عن إصابة المؤمنين والمذنبين في تحريهم إياه و استمع لتحاورهما :

قلت لليل : كم بصدرك سر ** أنبئني ما أروع الأسرار ؟**

قال : ما ضاء في ظلامي سر ** كدموع المنيب في الأسحار[3]**

أفترى المؤمنين إلا مصدق بجواب الليل ، فهو مسارع مستبق ؟

أم ترى أهل البلاغة إلا في إذاعة لما قال ؟ يستملون الناس :

فاز من سبح والناس هجوع

يدفن الرغبة ما بين الضلوع

و يغشيه سكون و خشوع

ذاكراً لله والدمع هموع

سوف يغدو ذلك الدمع شموع

لتضيء الدرب يوم المحشر سجدة لله عند السَحَر[4]

و يلقنون المذنبين المخطئين طريق الجنة ، فيستملون المسرف في أخرى أن :

عد إلى الله بقلب خاشع

وادعه ليلاً بطرف دامع

يتولاك بعفو واسع

و يبدل كل تلك الحسنات حسنات أجرها لن ينفدا

كل هذا العفو للعبد المنيب

سابغا من خالق الكون الرحيب

للذي تاب إليه من قريب [5]

---

[1] طبقات الشافعية للسبكي 3/171 .
[2] اغاثة اللهفان 255 .
[3] ديوان المثاني 35
[4] لوليد في مجلة التربية الإسلامية 7/636
[5] لوليد ، في أغاني المعركة 94 .

3- الابـــتـــدَاء

كل ممارس للعمل التربوي الإسلامي الحركي يلحظ لا بد ظاهرة سقوط البعـض وتراجعهـم ، فأنت ترى داعية سالكاً مع السالكين ، و تظن أنه سيثبت ، و لكنه يخيب ظنـك أثنـاء الطريـق ، بأن تصدمه رهبة أو رغبة ، أو يستأسر لنداء نفس وهوى ، فيغتر ، و يستولي عليه الــتيه إدلالاً وامتـناناً ، فيصيبه الفتور .

وربما استعصى تعليل مثل هذه الظاهرة حيناً ، ولكن تـفرّسنا فـي أنفسـنا ، و التــنقيب عـن الفقه التربوي في آثار رجال التربية الأقدمين : بدأ يرينا ملامح من التـفسير لهـا ، إن وُعِيـت حق وعيها لكان فيها بإذن الله ثبات القـلوب ، ولوُقِينا زلل الأقدام بعد ثبوتها .

- هو صفاء الابتداء

فأما الشاعر : فيشير إشارة عامة إلى تـفسير مثـل هذه الظاهرة ، ويـقول :

وكل امرئٍ - والله بالناس عالم - **** له عادة قامت عليها شمائله

تـعوّدها فـيمـا مضى مـن شـبابه **** كـذلك يـدعو كـل أمـر أوائـله

والشاهـد فيه : الشطـر الأخير ، فكـل أمـر تغـلب عليه الصفـة التي بدأ بها .

ولكن أساتذة التربية الأوائل قربوا أدنـى مـن الشـاعر ، فاتضـح وانكشـف لنـا مـذهبهم ، بمـا فصّلوا وعينوا من معنى أوائل الأمور .

منهم من صاغ ذلك في حروف قليلـة شـاملة ، فقـال : " الفـترة بعـد المجاهـدة : مـن فسـاد الابتداء " .

ويريد بالفترة : الفتور .

فهـو الابتداء إذن ، أي الخطوات الأولى للداعية المسلم في طريق الدعوة الموصل إلى الله ، تـكون صحيحة ، فيرتـقي بلا فتور ونكوص ، وإن فتـر فبـمـقـدار لا يتعـدى أدنـى مـا أثــر مـن سنّـة النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم . وتــكون معيبـة هـذه الخطـوات ، فيفتــر و ينكـص عـن الارتـقاء .

ولكن من أين يعترض الداعية الفتور إذا دفعه مربّوه بـقوة أول مرة ؟

و كيف لا يتسارع في يومه وغده سير من قطع به أمسه مرحلة نحو غايته ؟

و من أيقن أنه يتبع رسولاً من أولي العزم ، صلى الله عليه وسلم ، فكيف لا يستمد من عزمه ؟

فهي الخطوات الأولى إذن : من جعلناها له متقنة : ثبتت بعد ذلك قدمه ، بما يشاء الله ، ومن تركناه يضطرب فقد أعطينا لشيطانه المقص يقطع به حبل ما بيننا و بينه ، يتربص لذلك غفلة .

فإن لم يحصل الشيطان على المقص ، وفاتته المفاجأة ، فإنه يقنع بأن يمسك طرف الحبل يفلّ خيوطه بتدريج ، ويلقي في نفس من اعوجت بدايته الدعاوي ، ويريه قليل خيره وعمله كثيراً ، حتى يستولي عليه الغرور والتطاول ، فيرتكس هالكاً .

وهذه العقدة الثانية للشيطان أبصرها آخر من الصالحين ، ووصفها يحذرنا ، فقال : " إنما تتولد الدعاوي من فساد الابتداء ، فمن صحت بدايته : صحت نهايته ، ومن فسدت بدايته : فربما هلك " .

بل يهلك في الأغلب ، فإن مبني البداية على التجرد ، فإذا حرم من صفائه في الأول فإن بنيانه يظل مهتزاً مهما شمخ عالياً ، بل الخطر كل الخطر عليه في الحقيقة إذا شمخ ، فإنه يسرع إلى التمايل عند كل نداء ببدعة أو دعوة لمغنم ، لأن من شأن الشيطان أن يزين البدعة و يجملها ، و أن من شأنه أن يستغل وقت الحاجة ليغري ، ولئن تردد هذا الرجل الصالح فذكر مجرد الاحتمال و استعمل كلمة (ربما) ، ولئن تردنا فاقتصرنا على (الأغلب) ، فإن ثالثاً قد جزم بذلك فقال : " من لم يصح في مبادئ إرادته : لا يَسلم في منتهى عاقبته " .

وما هو بنسيان منه لمشيئة الله تهدي و تثبت من يختار ، ولكنه يتحدث عن تجربته في التربية ، ويقدم تقريره عن نتائج تفتيشه واستقراء أحوال من عرفهم .

وهكذا تكون عنايتنا بالابتداء خطاً بارزاً ظاهراً في فنّاً التربوي الحركي .

- **وهي النية الحرة**

وإنما يعنون بصفاء الابتداء معنيين يتتابعان في توال ، فيتلازمان : النية الصالحة ، والهمة العالية ، حصرهما البحتري في شطر مبين و سماهما :

نفس تضيء ، وهمة تتوقد [1]

و النفس المضيئة كناية عن النفس التي احتوت نية صافية ، فهي تنير بما يكون لها من هذا الصفاء .

وهي : (النية الحرة) التي ذكرها البحتري أيضاً في بيت آخر[2] ، فأحسن الوصف وأجاد ، فكأنها حرة مما يقيد غيرها ، من الأهواء والأطماع والمصالح ، لم يستعبدها درهم ولا دينار ولا جمال أنثى ، ولم تكن رقيقاً لمنصب أو شهوة .

فالداعية لا يصدر قط عن شهوة ، ولا طلب مصلحة ، و إنما له في كل حركة وسكنة تطلعات إلى الأجر .

وكذلك كان الصالحون .

---

[1] ديوان البحتري 1/29 .
[2] ديوان البحتري 6/40 .

وبهذا الوصف وصف هشام بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز الأموي رحمه الله فقال : " ما أحسب عمر خطا خطوة قط إلا وله فيها نية " [3] . ولذلك استطاع عمر في أقل من سنتين تقويم اعوجاج جيلين ، وعلى داعية الإسلام اليوم أن لا يستكبر عظم الانحراف الذي عمّ بلاد الإسلام ، فإنه – إن قَرن كل خطوة بنية مثل الراشد الخامس – سيهزم حزبين بإذن الله في أقل من سنتين .

و يتعاظم الخير في عقود المؤمنين مع الله كلما زاد تجردهم حين العقد ، ولذلك رأت الدنيا عظم الخير في ولاية عمر بن عبد العزيز لما تجرد سليمان بن عبد الملك رحمه الله محض التجرد حين عقد له واستخلفه وقال :

" لأعقدنَّ عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب " [2] .

بل العمل الصغير بالنية يعظم ، كما يشير عبد الله بن المبارك في قوله : " رُب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية " .

ومعقود اللسان من الدعاة يصبح بالنية ناثراً من فيه جواهر البلاغة الآسرة للناس ، كما ينص على ذلك طب عبدالقادر الكيلاني في قوله : " كن صحيحاً في السر : تكن فصيحاً في العلانية " [3]

وأما المخلط في نيته فيخلط عليه في أموره وسيرته ، كان ذلك في التاريخ على أهل التخليط حتماً مقضياً ، وهو المعنى الذي كشفه التابعي الجليل مُطرِّف بن الصحابي الجليل عبد الله بن الشخِيّر العامري في قوله : " صلاح العمل بصلاح القلب ، وصلاح القلب بصلاح النية ، ومن صفا : صُفّي له . ومن خلط : خُلِّط عليه " .

ونتيجة التخليط أن يضطرب القلب في فوضى تعدم السكينة ، و " إن الخطأ الأكبر أن تنظيم الحياة من حولك ، وتترك الفوضى في قلبك " ، كما يقول مصطفى صادق الرفاعي [4] .

فاعرف سياسة النفس هذه أيها الداعية ، وأتقِن ولوجها قبل ولوج سياسة الحكم ، فإنه : " فرض على العامل أن يعرف النية من الأمنية " , كما قيل .

فهناك نية وهناك أمنية ، والأمر كما قال يحيى بن معاذ : " لا يزال العبد مقروناً بالتواني , مادام مقيماً على وعد الأماني " [5] .

وما اختار أحدٌ الأماني تقوده إلا كان أثقل ما يكون خطواً ، ووجد ثَم السراب الخادع ، وعِّدِم الماءَ وقت العطش ، وأما المضيء النفس ، ومن لا أمنية له من الدعاة ، فإنك تجده سبّاقاً إلى كل خير أبداً ، وتجده على ري دوماً فإنه إن كان ذا قوة : استقى لنفسه ، أو استسقى ، فيجيبه الله بهطل من السماء ، وإن كان مستضعفاً : وجد وريثاً لموسى عليه السلام ، يسقي له ويزاحم الرعاع .

- **وهو قدم الهول**

---

[3] سيرة عمر لابن عبد الحكم 30/29 .
[2] سيرة عمر لابن عبد الحكم 30/29 .
[3] الفتح الرباني 64 .
[4] وحي القلم 2/44 .
[5] تاريخ بغداد 5/184 .

والهِمّة قرينة النية ، فلا شيء بعد النية قبلها ، وكل الاتـقان بعدها ، ومن أكسبها من المربين تلاميذه عند خطواتهم الأولى فقد ضمن لهم الاستمرار إن شاء اللـه , و قـد قيـل : " همتـك احفظها ، فإن الهمة مقدمة الأشياء ، فمن صلحت له همته وصدق فيها : صلح له ما وراء ذلك من الأعمال " .

ويمثل لها ابن القيم بمثل لطيف ، فيقول : " مثل القلب مثـل الطـائر ، كلمـا علا : بعـد عـن الآفات ، وكلما نزل : احتوشته الآفات " [1] .

فكما أن الاستعلاء بالهمة يبقي القـلب نظيفاً بريئاً من المعنى الخسيس مشـغولاً بالعظـام ، فإنه أيضاً يقي القلب الآفات والأمراض وسهام الشيطان ، كما تـقي نهضة الجناحين الطائر سهام الصياد ، و مهمة المربي المسلم : أن يعلـم الناشـئ هـذه النهضـة العاليـة فـي مبـادئ محاولاته .

و نهضة الجناحين هي بدورها كناية عن النفس التي احتوت تصميماً على حمل أثقال الـدعوة إلى الله ، فإن الجديد في سلك الدعوة إن فهم الدعوة في الأول مجرد تـزكية نفس ، و صحبة أخيار ، وبث أشواق ، وفرصة تكافل ، فإنه يحجم عن إنكار المنكر على الظـالم ، و يستعـصي عليه فهم معادلة ابن يزدانيار في الفراسة ، والـتي فهمهـا مـن قبلـه الرجـال ، ويـرجع عـن الزحف يوم الزحف و قائمة أعذاره تحت أحد إبطيه ، أولها : أنه لم يُنذر بمثل هـذا مـن قبـل ، ولا يحتوي هذا الشرط عقده ، ولذلك حرص رجال التربية على أن تكون أول خطـوة للسـالك : خطوة هّول ، كخطوة السبعين من قدماء الأنصار ساعة بيعة العقبة حين أخذوا على أنفسـهم أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يمنعون منه نسائهم وأبنائهم وأموالهم .

فهو هول الجهاد ، أو هول الإنكار ، وليس مـا فـي التجـافي عـن دار الغـرور ذات الشـهوات و التـقليـل من الأموال و الملذات بأقـل من هذين الهولين .

فإن أحب الدنيا فإنما يحبها كحب محمد بن أحمد المعـروف بـابن رزقـويه ، ذلـك الحـب الـذي يكشف عن همة عالية وراءه ، والذي ترجمه مخاطباً تلامذته :

" والله ما أحب الحياة في الدنيا لكسب ولا تجارة ، ولكن لذكر الله ، ولقراءتي عليكم الحـديث " [2]

وإنما ذكر الحديث كمثل لجنس الصالحات الـتي يجـب علـى الداعيـة أن يحـب الـدنيا لأجلهـا لا لغيرها .

وعن أجيال السلف أخذ جيل المجددين في هذا القرن فـقه الهمة ففهم الإمام حسن البنا أن الداعية الهمام : " يبذل كل ماله ، وكل دمه ، وكل نفسه ، في سبيل عقيدتـه الـتي آمـن بهـا وعاش من أجلها " [3] .

---

[1] الجواب الكافي 70 .
[2] تاريخ بغداد 1/ 352 .
[3] مذكرات الدعوة و الداعية 233 .

4- نحو أفراح الآخرة

لقد وصف الصالحون لنا سمات الابتداء لنأخذ بأحسنها ، و لئن كان بعضنا ينسى ، في ظـروف غفلة ، فإن الله خير الغافرين ، وليس له أن يقعد بعد الذكر مـع القـوم الغـافلين ، وإن عنـده لذخيرة من فقه الأولين تعينه على سلوك سـبل الرشـد الفجـاج الواضـحة الموصـلة إلـى رب العالمين .

وإن تـقوى الـقـلوب في الحقيقة هي التي تـقود تقوى الجـوارح ، كمـا قـال تعـالى : { ذلـك ومن يعظم شعائـر الله فإنهـا مـن تــقوى القلـوب } . وقـال : { لـن ينـال اللـه لحومُهـا ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم } . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (التـقوى هـا هنـا) ، وأشار إلى صدره .

" فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمـة وتجريـد القصـد وصـحة النيـة ، مـع العمل القليل ، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك ، مع التعب الكثير والسفر الشــاق ، فإن العزيمة والمحبة تـذهب المشقة وتطيب السير ، والتـقدم والسبق إلى الله سبحانه إنمـا

هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة ، فيتـقدم صاحب الهمة ، مع سكونه ، صاحب العمل الكثير بمراحل) [1]

- استعلاء .. ثمنه التعب

وإنما أرشـدك الصـالحون طريـق الاسـتعلاء والسـيادة بالنيـة والهمـة ، وعليـك تعبـه وركـوب مصاعبه ، وذلك : إن السيادة نهج واضح الوعر .

وليس أمرها بالهيَّن ، وإنما هي قول ثـقيل ألقاه الله تعالى على نبيه صلى اللـه عليـه وسـلم وعلى أتباعه : يجب أن يسودوا .

ويمكن لهذا الثـقـل أن تخـففه النية ، فيتعاظم تأثير التعب القليل بصلاحها ، كما أشار الـذين وصفـوا الابتداء ، ولكن هداية القـلب ، وإضاءة النفس ، ونهضات الهمة ، إنما يـذكيهن الجـد ، فمن أرادهن دائمات : أدام جده ، وهـو معنى قولهم : (استجلب نور القلب بدوام الجد)

فلا بد من الجد الدائم ، لأن خواطر الفكر دائمة ، وحركات الجوارح متصلة ، فإن لم يكـن الجـد معهن دائماً : شغلهن ما هو دونه أو ضده ، فيكون الهبوط من بعد الاستعلاء ، يحذرك إياه عبـد الوهاب عزام ، و ينبهك أن :

" الفكر لا يحد واللسان لا يصمت ، والجوارح لا تسكن . فإن لـم تشـغلها بالعظـائم : شـغلتها الصغائر .

و إن لم نُعمِلها في الخير : عملت في الشر .

إن في النفوس ركوناً إلى اللذيذ والهين ، و نفوراً عن المكـره والشـاق ، فـارفع نـفسك مـا استطعت إلى النافع الشاق ، ورضـها وسسـها علـى المكـروه الأحسـن ، حـتى تـألف جلائـل الأمور وتطمح إلى معاليها ، وحتى تـنفر عن كل دنية و تربأ عن كل صغيرة .

علمها التحليق : تكره الإسفاف . عرّفها العز : تـنـفر من الذل .

وأذقها اللذات الروحية العظيمة : تحقـر اللذات الحسية الصغيرة " [2]

- و أنت صاحب إيمان :

" وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هـذا الإيمـان ، لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثنـاء مجاهـدته للنـاس ، وتتـفتح لـه فـي الإيمـان آفـاق لـم تكـن لتتـفتح له أبداً وهو قاعد آمن ساكن ، وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين لـه أبـداً بغيـر هـذه الوسـيلة ، ويبلـغ هـو بنفسـه وبمشـاعره وتصـوراته ، و بعـاداته وطبـاعه وانفعالاته واستجاباته ، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة .

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى : { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض } ، وأول ما تـفسد : فساد النفوس بالركود الذي تأسن معه الروح ، وتسـترخي معـه الهمـة ، و يتلفها الرخاء و الطراوة ، ثم تأسن الحيـاة كلهـا بـالركود ، أو بالحركـة فـي مجـال الشـهوات وحدها ، كما يقع للأمم حين تبتلى بالرخاء " [3]

---

[1] الفوائد لابن القيم 140 .
[2] مجلة المسلمون 1/595 .
[3] هذا الدين لسيد قطب 10 .

- **وأتعب الناس من جَلّت مطالبه**
- **وأنت حر كريم**

و " لا يرمي الحر الكريم إلا أن يبلغ الأمد الأبعد في كل ما يحاوله فلا يألو أن يبذل جهده إلى غاية الطاقة و مبلغ القدرة ، مستمداً قوة من بعد قوة ، محققاً السحر القادر الذي في نفسه ، متلقياً منه وسائل الإعجاز في أعماله ، مرسلاً في نبوغه من توهج دمه أضواء كأضواء النجم تثبت لكل ذي عينين إنه النجم لا شيء آخر " [1]

- **و أنت صاحب غاية :**

و إنما يوصل الداعية إلى غايته : " شغفه بدعوته و إيمانه ، و اقتناعه بها ، و تفانيه فيها ، وانقطاعه إليها بجميع مواهبة وطاقاته ووسائله ، وذلك هو الشرط الأساسي والسمة الرئيسة للدعاة " [2]

- **و أنت طالب نفوذ إلى الله .**

و " طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة ، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة ، بحيث يكون رأساً في ذلك مقتدى به فيه ، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً ، حاكماً على وهمه ، غير مقهور تحت سلطان تخيله ، زاهداً في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقاً لما توجه إليه ، عارفاً بطريق الوصول إليه ، والطرق القواطع عنه ، مقدام الهمة ، ثابت الجأش ، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل ، كثير السكون ، دائم الفكر ، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته ، لا تستنفره المعارضات ، شعاره الصبر ، وراحته التعب " [3]

- **محنة الفراغ و الغفلة**

و يجتمع هذا الكلام الحق ليقرر أن محنة الداعية المسلم لا تكمن في معارضة الكفر له ، ولا في سجنه ، و تعذيبه

و تجويعه ، بقدر ما تكمن في استرخاء همته و التذاذه بالراحة .

ما محنة الداعية إلا لهوه وغفلته و جلوسه فارغاً ، وربما زاد فينفتح له باب من اللغو بعد اللهو .

تلك هي المحنة الحقيقية التي تفتعلها الجاهلية للدعاة بما تعرض للناس من مغريات و أسباب لهو تلفت أنظارهم إليها .

وما انتصار الداعية إلا في أن تعاف نفسه ما لا يؤثر في تقدم دعوته .

إن غفلة الداعية محنة لأنها صرفته عن نصر ممكن يحققه له الجد والعمل الدائب ، وعن أجر وثواب أخروي ليس له من مقدمة إلا هذا الجد .

وسيظل اسمنا مكتوباً في سجل الغافلين الفارغين ما دمنا لا نعطي للدعوة إلا فضول أوقاتنا ، وما دمنا لا نشغفها حباً ولا نتخذها حرفة .

---

[1] وحي القلم للرفاعي 1/65 .
[2] للندوي في مقدمته لمذكرات الدعوة و الداعية .
[3] لابن القيم في الفوائد 19 .

إن الداعية المسلم لا يملك نفسه حتى يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة ، وإنما هو - كما شبهه بعض الأفاضل - (وقف لله تعالى) .
تماماً كنسخة من كتاب نافع حين توقف لله تعالى وتوضع في مسجد من مساجد الله ، فكل داعية موقوف لله ، في جزء من أجزاء دعوة الله .
و إن فضول الأوقات ليست قليلة و محدودة فحسب ، و إنما هي أردأ ساعات اليوم ، حيث يكون فيها الذهن و الجسم متعبين أشد التعب .
و ما تجاوز الأستاذ المودودي – رحمه الله – أعراف أجيال الدعاة حين صارحنا في تذكرته القيمة وقال :
" إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نارا متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب ، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده ، ولا تزال تقلقه و تضطره إلى بذل الجهد والسعي .
إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم و تعمر قلوبكم بالطمأنينة ، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد والحنيفية وتركز عليها جهودكم وأفكاركم بحيث أن شؤونكم الشخصية و قضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين . وعليكم بالسعي أن لا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم و جهودكم ، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة وهذه العاطفة مالم تكن راسخة في أذهانكم ، ملتحمة مع أرواحكم و دمائكم ، آخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم ، فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم " [1]
و لم يتجاوز حين كرر و قال ثانية أن : " اسمحوا لي أن أقول لكم أنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وآبائكم وأمهاتكم فإنكم لا بد أن تبوءوا
بالفشل الذريع ، بفشل لا تتجرأ بعده أجيالنا القادمة على أن تتفكر في القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة
من الزمان ، عليكم أن تستعرضوا قوتكم القلبية والأخلاقية قبل أن تهموا بالخطوات الكبيرة "[2]
إن من يطالب الآن بإلغاء الراحة فإنه إنما يستند إلى مادة واضحة في قانون الدعوة والدعاة سنها عمر الفاروق رضي الله عنه , تنطق بصراحة أن :
(الراحة للرجال : غفلة) [3]
وجددها إمام المحدثين شعبة بن الحجاج البصري فقال : " لا تقعدوا فراغاً فإن الموت يطلبكم " .

---

[1] تذكرة دعاة الإسلام 57 .
[2] تذكرة دعاة الإسلام 59 .
[3] أدب الدنيا و الدين للماوردي 82 .

ذلك أن من أراد الراحة و السكون فإن الموت و القبر يزودانه منهما حتى يشبع . وكأننا – والله – قد أسرفنا في الغفلة ، ولا بد من عزيمة نفطم بها نفوسنا عن اللهو .

إننا حين نثبت جواز التمتع بالمباحات فلكي يعلم من نخاطبه أننا لا ندعو إلى مثل الطريقة المبتدعة التي كان عليها بعض الزهاد من الجوع والعري والرهبانية ، وإلا فلا يزال جواب ابن الجوزي يصلح جواباً لنا حين سأله سائل : " أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي ؟ " فقال : " عند نفسك من الغفلة ما يكفيها " [1]

فإن اعترض معترض : أتيناه بمثل كلام ابن القيم حيث يقول: " لا بد من سِنة الغفلة ، ورقاد الغفلة ، ولكن كن خفيف النوم " [2]

فنحن لا ننكر ما في المعنى الحرفي لإطلاقات من عاب الراحة من إرهاق ، وإنما نريد – كما أرادوا – تقليلها إلى أدنى ما يكفي الجسم ، كل حسب صحته و ظروفه ، خاصة وأن المؤمن في هذا الزمن أشد حاجة للانتباه و معالجة قلبه وتفتيشه مما كان عليه المسلمون في العصور الماضية ، ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي تسوده الفضائل ، ويسوده التواصي بالحق ، والرذائل تجهد نفسها في التستر والتواري عن أعين العلماء و سيوف الأمراء ، أما الآن فإن المدنية الحديثة جعلت كفر جميع مذاهب الكفار مسموعاً مبصراً بواسطة الإذاعات والتلفزة والصحف ، وجعلت إلقاءات جميع أجناس الشياطين قريبة من القلوب ، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يريد ولا يشعر بهذا المسموع والمنظور ، فضلاً عن ارتفاع حكم الإسلام عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها , فوجب عليه شيء من المجاهدة والمراقبة لوقته أكثر مما كان يجب على السلف .

و ما أصدق تصوير إمام تركيا بديع الزمان سعيد النورسي – رحمه الله – لهذه الحقيقة حين يقول : " إن هذه المدنية السفيهة ، المصيرة للأرض كبلدة واحدة ، يتعارف أهلها و يتناجون بالإثم وما لا يعني ، بالجرائد صباحاً و مساء ، غلظ بسببها و تكاثف بملاهيها حجاب الغفلة ، بحيث لا يخرق إلا بصرف همة عظيمة " .

فكن خفيف النوم أيها الداعية المسلم لتحصل لك هذه الهمة العظيمة .

و انته من رقدة الغفلة **** فالعمر قليل

و اطّرح سوف وحتى **** فهما داء دخيل

وعبر الصالحون عن هذه المعاني أحياناً بلفظ آخر سموه : حفظ الوقت ، أو مراعاة الوقت .

فيرى الإمام البنا أن : " من عرف حق الوقت فقد أدرك قيمة الحياة فالوقت هو الحياة " .

أو كما قال في خطبة المؤتمر الخامس : " إنما الوقت هو الحياة " يخالف بذلك قول الماديين : الوقت من ذهب . وكان – رحمه الله – يحب أن يتجاوز الداعية معرفة حق وقت يومه إلى التخطيط لصرف وقت غده ، فينوي لكل ساعة نوع خير ، و : " ينام على أفضل العزائم " [3]

---

[1] ذيل طبقات الحنابلة 1/ 422 .
[2] الفوائد 41 .
[3] مجموعة رسائل الإمام 498 .

و ترك الفراغ ، والاستيقاظ من رقدة الغفلة ، معناهما التعب ، ثم التعب ، و استفراغ الوُسع في العمل لله . نطق بذلك الإمام الشافعي ، ونفى أن تصح مروءة داعية يطلب الراحة ، فقال :

" طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات ، فإن أحدهم لم يزل تعبان في كل زمان " .

ولما سئل أحد الزهاد عن سبيل المسلم ليكون من صفوة الله ، قال : " إذا خلع الراحة وأعطى المجهود في الطاعة " [1] .

فالداعية الصادق يخلع الراحة ، ويعود لا يعرفها ، وتصبح عنده ذكريات شبابه الأول وصباه فحسب .

وأما الإمام أحمد فقد ترجمت سيرته في المحنة هذه الأوصاف عملاً ، حتى قال لابنه : " يا بني : لقد أعطيت المجهود من نفسي " [2]

يعني في المحنة , وبذلك حدَّ حدّاً لا يسع الداعية النقصان فيه ولا التخلف عنه ، فعلى الداعية بذل المجهود من نفسه ، و استفراغ كل طاقته في خدمة الدعوة .

طريق رسمه الإمام أحمد لا يسعنا أن نحيد عنه , ومقدار قدره للدعاة ليس لهم أن يقفوا دونه نصيباً مفروضاً ، هو : المجهود من النفس ، وعلامته حين المحن : الصبر على الأذى حتى الموت . وعلامته في حياتك اليومية : أنك إن جئت إلى فراشك ليلاً لتنام وجدت لركبتيك أنيناً ، و في عضلاتك تشنجاً ، لكثرة ما تحركت في نهارك .

وإنما نسميه التعب ، والأنين ، و التشنج ، لغرض تفهيم الداعية الجديد ، لأن هذه الاصطلاحات هي لغة أهله و عموم الناس الذين تركهم من قريب ، و أما في لغة الدعاة فهو محض اللهو الذي تهفو إليه نفوسهم ، و عنهم نقله البحتري في وصفه لممدوحه حين يقول :

قلب يطل على أفكاره ، ويدٌ **** تمضي الأمور ، ونفس لهوها التعب [3]

ومن لا يعلم موازين المؤمنين يظن ذلك حرماناً من لذة ، وخداع ألفاظ ، و غواية اتباع الشعراء ، ولكن من أوتي علم الكتاب يعرف أن الراحة الحقيقية : راحة الآخرة ، لا راحة الحياة الدنيا ، ولذلك لما قيل للإمام أحمد : " متى يجد العبد طعم الراحة ؟ "

قال : " عند أول قدم يضعها في الجنة " [4]

و لما تعجب غافل من باذل وقال له : " إلى كم تتعب نفسك ؟ "

كان جواب الباذل سريعاً حاسماً : " راحتها أريد " [5]

" فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته : جعله عمارة لقلبه وروحه . وكلما نقص شيء من دنياه : جعله زيادة في آخرته . وكلما منع شيئاً من لذات دنياه جعله زيادة في لذات آخرته . وكلما ناله هم أو حزن أو غم : جعله في أفراح آخرته " [6]

و من لمح فجر الأجر : هان عليه ظلام التكليف ، كما يقول ابن الجوزي .

---

[1] تاريخ بغداد 3/75 .
[2] مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي 339 .
[3] ديوان البحتري 1/ 172 .
[4] طبقات الحنابلة 1/293 .
[5] الفوائد لابن القيم 42.
[6] الفوائد لابن القيم 189 .

و لعمرو الله ما هو بظلام ، ولكنها لغة اضطر لها كما اضطررنا ليـعـقـل مراده الراقدون .

5- الأخوة شعار دعوتـنا

التسبيح في دقائق الأسحار الغالية ، والتعامل الأخوي الإيماني : ركيزتـان متلازمتـان تــقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وعينان نضاختان ، تسكبان خيراً للدعاة لا ينضب . " إنهما ركيزتان تـقوم عليهما الجماعة المسلمة ، وتؤدي بهمـا دورهـا الشـاق العظيـم ، فـإذا انهـارت واحـدة منهما لم تـكن هناك جماعة مسلمة ، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه " [1]

- التـقـوى أولاً

وإنما التسبيح عنوان الإيمان وإسلام النـفس لله تعالى ، والإيمان عنوان التصـور المـوزون ، وضمانة الثبات أمام مخاطر الطريق .

" ركيزة الإيمان والتـقوى أولاً .. التـقوى التي تبلـغ أن تـوفي بحـق اللـه الجليـل .. التــقوى الدائمة اليقظة التي لا تـغـفـل ولا تـفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتاب أجله : { يا أيها الذين آمنوا اتـقوا الله حقَّ تُـقاتـه } .. اتـقوا الله - كما يحـق لـه أن يُتــقى - وهـي هكـذا بدون تحديد تدع القـلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها . وكلمـا أوغـل القلـب في هذا الطريق تكشفت له آفاق ، وجدت له أشواق . وكلما اقترب بتــقواه مـن اللـه ، تيقـظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ وإلى مرتبة وراء ما ارتـقى ، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام !

{ ولا تموتُن إلا وأنتم مسلمون } والمـوت غيـب لا يـدري إنسـان مـتى يـدركه ، فمـن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منـذ اللحظـة مسـلماً . وذكـر الإسـلام بعـد التــقوى يشـي بمعناه الواسع : الاستسلام . الاستسلام لله ، طاعة له ، واتباعاً لمنهجه ، واحتكاماً إلى كتـابه . وهو المعنى الذي تـقرره سورة آل عمران كلها في كل موضع منها .

هذه هي الركيزة الأولى التي تـقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق و جودها وتـؤدي دروهـا ، إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً ، ولا يكون هناك منهج الله تتجمع عليـه أمة ، إنما تكون هناك مناهج جاهلية ، ولا تـكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشـرية ، إنمـا تكون القيادة للجاهلية " [2]

" لا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم ، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكـر ، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكـفي ، فقـد يعم الفساد حتى تضـطرب المـوازين وتختــل ، ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر ، وللفضـيلة والرذيلـة ، وللمعـروف والمنكـر ، يستـند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال .

وهذا ما يحققه الإيمان بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه ، وللإنسان وغايـة وجـوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون .. ومن هذا التصور العام تــنبثق القواعـد الأخلاقيـة ، ومـن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضـبه ينـدفع النـاس لتحقيـق هـذه القواعـد ، ومـن سـلطان

---

[1] الظلال 4/22- 32 .
[2] الظلال 4/ 22- 32 .

شريعته في المجتمع تـقوم الحراسة على هذه القواعـد كـذلك . ثـم لا بـد مـن الإيمـان أيضـاً ليملك الدعاة إلى الخير ، الآمـرون بـالمعروف ، والنـاهون عـن المنكـر ، أن يمضـوا فـي هـذا الطريق الشاق ، و يحتملوا تكاليفه ، وهم يواجهـون طـاغوت الشـر فـي عنفـوانه وجـبروته ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكلل العزائـم ، وثـقـل المطامع ... و زادهم هو الإيمان ، وعدتهم هي الإيمان ، وسندهم هو اللـه .. وكـل زاد سوى زاد الإيمان ينفد ، و كل عدة سوى عدة الايمان تـفل ، و كل سند غير سند الله ينهار " [1]

و يحدثنا إقبال عما فعله هذا الإيمان من توحيد التصور الذي انتبه إليه سيد قطب فيقول :

وُحِّد الرئي لنا و الفكرة **** كسهَام جمعتها جعبة

نحن فكر و خيال واحد **** ورجاء و مآل واحد [2]

فهذا أقصى ما يكون من الاتحاد ، بـأدنى مـا يكـون مـن الوسـائل ، فالرؤيـة واحـدة ، والفكـر والخيال واحد ، والرجاء واحد ، والمصير واحد ، كل ذلك يعطيه الإيمـان ، ومـا أسـهل تــناوش من ملك القلب لهذا الإيمان البسيط ، ذي الأعطيات الثمينة .

- و نـثـنـي بالأخوة ..

" أما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة .. الأخوة في الله على منهج الله ، لتحقيق منهج اللـه : { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تـفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بيــن قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً , وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يــبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون } ..

فهي أخوة إذن تـنبثق من التـقوى والإسلام .. من الركيزة الأولى .. أساسها الاعتصام بحبـل الله - أي عهده ونهجه ودينه - وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر ، وعلـى أي هـدف آخـر ، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة !

{ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمـة يمتـنّ اللـه بها على الجماعة المسلمة الأولى ، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً " [3]

" وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين .. على الإيمان بالله : ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله سبحانه , وتمثل صفاته في الضـمائر ، و تــقواه و مراقبته ، و اليقظة و الحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال . وعلى الحب : الحب الفياض الرائق . والود : الود العذب الجميـل . و التكافـل : التكافـل الجـاد العميـق .. و بلغت تلك الجماعة فـي ذلـك كلـه مبلغـاً ، لـولا أنـه وقـع ، لعـد مـن أحلام الحـالمين ! وقصـة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ، ولكنها فـي طبيعتهـا أقـرب إلـى الرؤى الحالمة ! وهي قصة وقعت في هذه الأرض ، ولكنهـا فـي طبيعتهـا مـن عـالم الخلـد و الجنان !

---

[1] الظلال 4/22- 32 .
[2] ديوان الأسرار و الرموز 89 .
[3] الظلال 4/23 – 28 .

وعلى مثل ذلك الإيمان ، ومثل هذه الأخوة ، يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان) [1]
ومن هنا كانت هذه العودة إلى محاولة تأكيد معنى الأخوة كجزء من إحياء فقه الدعوة ، فإن الأخوة شرعية دعوتنا وشعارها واسمها ، وميثاقها الذي واثقتنا به ، وكتابها الذي كتبته على نفسها ، وما زالت تأتي دعوتنا المباركة بصائر جديدة من تجاربها المتكررة تسرع بها إلى ابتغاء كل وسيلة إلى هذه الفضائل وتجميع أنصارها إلى الله على التحابب ، والتكافل ، و التسامح ، و مكملات هذه الرواسي الشامخات ، وكمالها أن ترى من بعد وحدة الرؤية و الفكر و الخيال و الرجاء و المصير : وحدة القلب و الروح ، بل و وحدة اللفظ أيضاً ، فلا تكون هناك إلا صيحات واحدة . بحروف متقاربة ، تعبر عن مفهوم واحد ، كما أراد إقبال حين يقول :

نحن من نعمائه حلف إخاء **** قلبنا و الروح و اللفظ سواء [2]

فلم يقنع بوحدة القلب ، حتى توحدت الألفاظ .

- عقد الأخوة

و يظل هذا الاتحاد يتنامى حتى يكون عقداً واجب الوفاء ، فقد تكلم ابن تيمية عن (عقد الأخوة) هذا وبين أن الحقوق التي ينشؤها إذا كانت من جنس ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه لكل مؤمن على المؤمنين فإنما هي : " حقوق واجبة بنفس الإيمان ، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله ، وهذه ثابته لكل مؤمن على كل مؤمن وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة " [3]

فيأتي العقد يؤكدها إذن ، ولم يحصل خلاف إلا في التوارث عند عدم وجود القرابة كما كان الأنصار و المهاجرون يتوارثون بالتآخي الذي أقره النبي صلى الله عليه وسلم بينهم أول مقدمه المدينة ، فقد قال أكثر الفقهاء بنسخ ذلك ، وأجازه أبو حنيفة و أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه .

إن هذا العقد الأخوي يزيد الواجب الإيماني ثبوتاً ، وما نراه إلا كبيعة سلمة بن الأكوع الثانية رضي الله عنه تؤكد بيعته الأولى حين كانتا في ساعة واحدة يوم الحديبية تحت الشجرة ، كما جاء عنه في صحيح البخاري في قوله : (بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، فقال لي : يا سلمة : ألا تبايع ؟ قلت : يا رسول الله قد بايعت في الأول . قال : وفي الثاني) [4] ، فكذلك المسلمون : أوجب الإسلام على بعضهم البعض حقوقاً ، ويتبايعون بعقد أخوة في الثاني ، زيادة خير ، وابتغاء توثق ، وعنصر تذكير ، لتنشأ الجماعة المؤتلفة المتماسكة المستحكمة التي وصفها إقبال – رحمه الله – في رموزه حين يقول :

كل فرد بأخيه ائتلفا **** مثل در في سموط ألفا

---

[1] الظلال 4 / 23 – 28 .
[2] ديوان الأسرار و الرموز 89 .
[3] مجموع فتاوي ابن تيمية 11/101 .
[4] صحيح البخاري 9 / 98 .

لفهم في عيشهم معترك **** كل فرد بأخيه ممسك

من جذاب تتوالى الأنجم **** كوكب من كوكب مستحكم [1]

وهكذا ، فإنه ليس من عمل للداعية المسلم اليوم أثمن من غدوة يهب فيها لـدعوته – بفضـل الله – ناشئاً يغمس نفسه فيؤزره ، فيستغلظ ، فيستوي على عـقـد الأخوة ، يعجب الدعاة ، و يغيظ به الكفار .

- مـيـزان التـصاحـب

وهكذا تكون الأخوة بين الدعاة هي الركن المهم في تربيتـنا بعد الصلاة والتسـبيح ، ومـا مـن جزء من أجزاء الحركة الإسلامية يقذف بنـفسه فـي ميـدان العمـل العـام قبـل إحلال معـاني الأخوة الإيمانية في أعضائه إلا ذاق وبال تساهله وتـفريطه ، ولا منـاص مـن أن تَـدرج بـدايته على طرق الإيمان واستغلال دقائق الليل الغالية ، ويكـون فيـه (أدب الأخـوة) مترجمـاً فـي تـناصح وتكافل وتحابب يجمع القلوب ويعلمهاالتحالم - إن لم يكن الحلم - عند إبطاء المقصر و تجاوز الملحاح ، مثلما يعلمها المكافأة و الوفاء و الشكر عند إسراع المبادر و عـدل خفيـض الجناح .

لقد أحب الإمام البنا هذا الأدب للدعاة ، ووضع له منهجاً بحيـث " يرفـع أخـوتهم مـن مسـتوى الكلام والنظريات إلى مستوى الأفعال والعمليـات " [2] ، ورأى رحمـه اللـه مـن تـآخي الرعيـل الأول ما أقـر عينه حياً ، وبرهان وفاء محبيه من بعده أن يكونوا دوماً عند محاسن هـذا الأدب ، و أن يفيئوا إليه عند أول انتباهه إذا أنستهم الغفلات .

إنها نعمة الأخوة .

يجعلها عمر بن الخطاب – رضي الله عنـه – أثمـن منحـة ربانيـة للعبـد مـن بعـد نعمـة الإسـلام فيقول : (ما أعطي عبـد بعـد الإسـلام خيـراً مـن أخ صـالح ، فـ إذا رأى أحـدكم ودّاً مـن أخيـه فليتمسك به) .

و يسميها التابعي مالك بن دينار : روح الدنيا ، فيقول : (لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة : لقاء الإخوان ، و التهجد بالقرآن ، وبيت خال يذكر الله فيه) . و يحكر لها الشـاعر صـفة الـذخيرة ، فيقول :

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة **** و لكن اخوان الثقات الذخائر

و لهذا كثرت توصية السلف باتـقان انتـقاء الأخ الصـاحب ، لتصـاب الـذخيرة الحقـة ، والـروح الحقة ، فكان من وصايا الحسن البصري سيد التابعين أن : (إن لك من خليلك نصيباً ، وأن لك نصيباً من ذكر من أحببت ، فتـنـقوا الاخوان و الأصحاب والمجالس) [3]

فأما أولاً : فقد عمموا صفة الخيرية بإطلاق تحكم الانتـقاء ، وعبروا عن ذلك بقولهم :

أنت في الناس تـقاس **** بالذي اخترت خليلاً

فاصحب الأخيار تعلو **** و تـنل ذكراً جميلاً [4]

---

[1] ديوان الاسرار و الرموز /84 .
[2] رسالة التعاليم / المجموعة 28 .
[3] كتاب الزهد لابن المبارك 232 .
[4] نفح الطيب للمقرى 8/67 .

ثم خصصوا ففسروا الخير بالتقوى ، وقالوا :

نافس ، إذا نافست في حكمة ** آخ ، إذا آخيت ، أهل التـقى**

ما خير من لا يرتجي نفعه ** يوماً ، ولا يؤمن منه الأذى [1]**

ثم زادوا و ذهبوا أبعد ، فعددوا صفاتهم ، يعينونك على دقة الاختيار .

- **أعلى صفاتهم : طيبة القول ، ذكرها عمر رضي الله عنه فقال : " لولا أن أسـير في سبيل الله ، أو أضع جبيني لله في التراب ، أو أجالس قوماً يلتـقطون طيب القــول كما يلتـقط طيب الثمر ، لأحببت أن أكون لحقت بالله " [2]**
- **و من صفاتهم : أن أحدهم : (يرفع عنك ثــقل التكلـف ، و تسـقط بينـك و بينـه مؤونة التحفظ . و كان جعفر بـن محمـد الصـادق - رضـي اللـه عنهمـا - يقـول : أثــقل اخواني علي : من يتكلف لي وأتحفظ منه ، و أخفهـم علـى قلـبي مـن أكـون معـه كمـا أكون وحدي) [3]**
- **و من صفاتهم : ترك حضيض الدينار والدرهم ، و السمو إلى العلا ، وضربوا لذلك الإمام أحمد بن حنبل في انتـقائه الأصحاب مثلاً ، وذلك حين يقول الذي يطريه :**

و يحسن في ذات الإله إذا رأى ** مضيماً لأهل الحق لا يسأم البلا**

و أخوانه الأدنون كل موفق ** بصير بأمر الله يسمو إلى العلا [4]**

- **و من صفاتهم : مذاكرة الآخرة ، كما قال الحسن البصري : " إخواننا أحـب إلينـا من أهلنا و أولادنا ، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا و إخواننا يذكروننا بالآخرة " [5]**
- **و من صفاتهم الإيثار ، وهو أحد أركان بيعة الشاعر صالح حياوي لهم حين يقـول :**

أبداً أظل مع التـقاة ، مع الدعاة العاملين

الناشرين لواء أحمد عالياً في العالمين

المنصفين المؤثرين على النفوس الآخرين

معهم أظل ، مع التـقاة ، مع الدعاة المسلمين [6]

- **و من صفاتهم : بذل النصح ، فأحدهم : (صالح يعاونـك في دين الله ، و ينصحك في الله) .**

- **آفـات الـمـجـالس :**

وهذا الانغماس يؤدي إلى الاجتماع والمجالسة بالتـالي ، ولـذلك وجـب التعـرف علـى سـيماء المجالسة النافعة ، و الابتعاد عن بعض المعايب التي تـلحقها .

---

[1] لأبي العتاهية في ديوانه 25 .
[2] الزهد لابن المبارك 416 .
[3] احياء علوم الدين 2/188 .
[4] مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي 114 .
[5] احياء علوم الدين 2 / 176 .
[6] مجلة التربية الإسلامية 7/55 .

ويجمع ذلك : تحري النفع في الدين فإنها الكلمة الجامعة المانعة ، والمادة الموجزة في قانون التآخي ، يضعها زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فيقول : " إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه " [1]

فشأن كل داعية ناشئ أن يرتاد لنفسه المجالس التي يزيد فيها إيمانه وعلمه ، وأن يقصد المجالس التي تنفع دينه ، ولا يعرف مجالس اللغو و اللهو و قتل الفراغ .

وشرح ذلك إقبال بشطر حاسم ، يريد لنا أن لا نطيل القول بعده ، فقال يدعو الله عز و جل :

هب نجيّا يا ولي النعمةِ ** محرماً يدرك ما في فطرتي**

هب نجيا لقِنا ذا جنة ** ليس بالدنيا له من صلة[2]**

فهذا جماع القول :

إن صاحب الداعية المسلم : داعية آخر ليس بالدنيا له من صلة .

صلته بالآخرة ، و شوقه إلى الجنة .

بينه و بين الدنيا انقطاع و جفاء .

إن تحريت عنه : وجدته .

إنه هو صاحبك .

آخه ، وأحببه ، واصحبه ، وأعطه مثل الذي يعطيك ، وإلا فإنك أنت العاجز ، فإنه كان يقال : " أعجز الناس من فرط في طلب الإخوان , و أعجز منه من ضيع من ظفر بهم) .

فاطلب الإخوان ، نرفع عنك صفة العجز . ولابن القيم كلام موجز شامل في ذلك ، يدل على تجربة داعية من أهل الوعي ، شخص فيه أخطار المجالس فقال : " الاجتماع بالاخوان قسمان :

أحدهما : اجتماع على مؤانسة الطبع و شغل الوقت ، فهذا مضرته أرجح من منفعته ، و أقل ما فيه أنه يفسد القلب و يضيع الوقت .

الثاني : الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة و التواصي بالحق و التواصي بالصبر ، فهذا من أعظم الغنيمة و أنفعها ، و لكن فيه ثلاث آفات :

أحدها : تزين بعضهم لبعض .

الثانية : الكلام و الخلطة أكثر من الحاجة .

الثالثة : أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود " [3]

والذي يؤسف له أن مخاوف ابن القيم هذه تحولت إلى واقع تحياه بعض مجالس الدعاة الحالية ، ووجد التزين وسيلة ليظهر فينا ، وزادت الخلطة بين الدعاة عن مقدارها الذي تحتاجه الدعوة وتحولت إلى شبه بطالة وشهوة تلهي عن مقصود تجمعنا في متابعة العمل مع الناشئة والجدد ، وفي الانطلاق خلال المجتمع العام لتبليغه كلمة الإسلام .

- **و المرء يعجب من صغيرة غيرة !**

---

[1] تهذيب التهذيب 2/396 .
[2] ديوان الاسرار و الرموز 71 .
[3] الفوائد لابن القيم 51 .

و لو أن عادتَي التـزين و البطالة تـقفان عند حدهما لعولج أمرهما بمجرد استـــنهاض وتـذكير خفيفين ، ولكن هاتين الآفتين تتعديان في آثارهما ، ويتولد عن اجتماعهما خلـق الضـيق عـن العـفـو ، بينما يشير استـقـراء الحياة الجماعيـة إلـى ضـرورة خلـق التسـامح والمرونـة لمـن يحياها .

وقد يظن البعض أن مثـل هذا الكلام أقرب إلى مواعظ العامة منه إلـى بحـوث فقـه الـدعوة ، ولكن من يعاني إدارة العمل اليومي للدعوة الإسلامية يدرك ضرورته ، و يعرف كم من الترف ، بل و الخطر ، يكمن فيمن يتعالى عن مثل هذه المـواعظ ليهمـس بمعـاني فنـون التخطيـط والعمل السياسي في آذان من تضيق صدور بعضهم عن معاني التسامح و العفو عـن صـاحب الزلة و الخطأ ، ولا بد من اقتران التوعية العملية للداعية المسلم بالتربية الخلقية الإيمانيـة ، ولا بد من سيرهما معاً .

وهذا هو مصدر إصرار الأقدمين و المعاصرين على التوصية بسعة الصدر ، و التحابب الأخوي . يقدمهم الفضل بن عياض فيقول : " من طلب أخاً بلا عيـب صـار بلا أخ " فضـع فـي حسـابك عندما تعقد (عـقـد الأخوة) أن من تتعاقد معه غير معصوم .

ويأخذ الشعراء دورهم في التوصية ، فيقول مشرقيهم :

لا لوم في خطأ ولا تثريبا

و يقول مغربيهم :

سامح أخاك إذا أتاك بِزلَّة

ويقول ثالثهم :

إذا ما بدت من صاحب لك زلة **** فكن أنت محتالاً لزلتـه عذراً

أحب الفتى ينفي الفواحشَ سمعُه **** كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسط أذى **** ولا مانع خيراً ، ولا قائل هجرا

ولكن كم أرتـنا الأيام من قال هجرا ، وتراه إذا ما دعوته إلـى اللـين يعبـس ويبسـر ، و يـذهب مغاضباً ، كأنما تدعوه إلى شيء نكر ، و إنما هي سذاجة نـفسه نريد أن نقيه إياها ، وإنمـا هـو تربص العدو نريد أن نبعده عنـه ، بمـا عرفنـا عـن عـدونا مـن قعـوده للـدعاة صـراط أخـوتهم المستـقيم .

وهاؤم تـفحصوا تاريخنا ، كم من منتصر لنفسه استعجل فخاصم ، فما استطاع من قيام ومـا كان منتصراً ، و لفتـه دوامة العيش المعقد فضاع في خِضَمّها منسياً ، يأكل و يشرب ، و ليس له من بعد ذلك نوع وجود .

إن جموع هؤلاء المغاضبين إنما تأخرت و ضاعت في تيار الدنيويات بما كانت بموازين الأخـوة تخل ، ولو أنهم استـقاموا علـى الطريقـة الأولـى وراغـوا إلـى فقـه الأخـوة المـوروث ، لمـا مسّهم اللغوب و الضياع .

إن الفقه الذي ورثـناه عن التابعي بكر بن عبد الله المزني ينص علـى إنـك : " إذا وجـدت مـن أخوانك جفاء فذلك لذنب أحدثـتَه ، فتب إلى الله تعالى ، و إذا وجدت منهم زيادة محبـة فـذلك لطاعة أحدثـتها فاشكر الله تعالى) .

فاتهم نفسك إذا عوملت بجفاء أو رأيت نوع تقصير في حقك الذي تظنه قبل أن تبادر بالهجوم .

إن هذه النصوص القديمة من فقه الأخوة الإيمانية ، يصوغها عبد الوهاب عزام في العصر الحديث في بيتين جامعين من مثانيه و يقول :

في فؤادي بحران : ملحٌ وعذب **** وبه صرصر وريح رخاء

فهو مُرّ على البغاة عصوف **** وهو عذب لصاحبي و صفاء [1]

فأنت مطالب أيها الداعية المسلم أن تملأ قلبك من مشاعر الأخوة في الله لإخوان العقيدة بقدر ما يجب أن تضع فيه من مقت أهل الباطل البغاة .

سادساً : أشجار الإيمان

وحدة العبودية ، و تكاملها ، في أجزاء هذا الكون ، لله تعالى الذي خلقه : حقيقة يراها المتفكر ، إذا استطاع أن يفلت من الصخب الملهي و يتأمل في هدوء ورَوية .

منها : عبودية لا تشوبها الوساوس ، لبساط الأرض جميعه ، حشائشه و الباسقات ، نبهك القرآن لها ، في قوله عزّ وجلّ : { والنجم و الشجر يسجدان } .

قال الطبري : " يعني بالنجم : ما نَجَم من الأرض من نبت ، وبالشجر : ما استقل على ساق [2] "

فهو منظر سجود دائم يراه المؤمن ليكون له تذكرة حين تثقله الغفلة ، يديم له سجوداً قلبياً ، آيته الرضا عن الله ، والتسليم لحكم حلاله وحرامه ، به يستكمل سجود جبهته مغزاه .

ومتى ذاق المؤمن ، بالخلوات المسترسلة ، لذة مراقبة هذا السجود الأخضر ، المتوشح بألوان الزهر ، وأذن لقلبه أن يبالغ في الهبوط مقلداً ، حتى يلامس أوطأ الإخبات : نادى غيره للمشاركة ، وعرض عليه الرفقة ، منخلعاً عن حسد واحتكار .

---

[1] ديوان المثاني 38 .

[2] تفسير الطبري 1/516 – طبعه دار المعارف .

وتلك هي دعوة إقبال ، لما ظفر بسر السياحة الإيمانية الصامتة ، في البراري الناطقة ، ونبهك إلى إنصات واجب ، لتسبيح دائب ، و أوصاك أن :

دع الدور و اطلب فسيح البراري **** و انظر إلى صفحات الجمال

على حافة الماء دون ملال **** تأمل ترقق ماء زلال

وحدق إلى نرجس ذي دلال **** وقبِّل عيوناً له كاللآلي [1]

و كان عبد الوهاب عزام أول مجيب له ، وطفق يستغرق في التأمل ، فرآه جاهل بما هنالك فأنكر عليه ، فقال :

لست أخلو لغفلة و سكون **** وفرار من الورى و ارتياح

إنما خلوتي لفكر و ذكر **** فهي زادي وعُدّتي لكفاحي

و ما زاد بهذا على أن جدّد مذهباً سالفاً ، و عرفاً عند أول المسلمين ، في استلال ساعة من بين حركاتهم في التعلم و التعليم ، والأمر و النهي ، و ضرورات المعيشة ، يميلون فيها إلى التفرد خارجاً ، والركون إلى أرباض مدنهم ، و الجلوس بين الزروع ، يرجون لأنفسهم بصائر و تذكرة .

وروى ابن القيم أن شيخه ابن تيميه ، رحمهما الله ، كان يتركهم غادياً بعد الفجر مراراً ، فراقبه ، فوجده يعتزل في غوطة دمشق و حقولها ، حتى غدت عنده عادة .

وما ذاك على أسلوب القرآن بغريب ، ولا على رموز النص الشريف المأثور و تشبيهاته ، بل هو ارتباط واضح خلالهما بين الخضرة و خصال الفطرة ، ترك طابعه على طرائق المؤمنين في التعبير و التمثيل ، في نحو على منحاهما ، يدلك على قلوب فقهت المناسبة ، واستوعبت الإشارة ، وشهدت الرابط الجامع في لقيا الشجر و معاني الإيمان إنها غاية من أشجار الإيمان ، فيها أيك ملتف متشابك ، تجعل سيرك في ظل وارف ، و مداعبة من زكي العبيق .

- تفجؤك فيها شجرة التوحيد .

وهي شجرة غرسها القرآن ، تستلقي تحت أغصانها حين تقرأ قول الله تبارك وتعالى :

{ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تُؤتي أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربها ، و يضرِب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون }

قال ابن القيم : " فإنه سبحانه شبّه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل ، الباسقة الفرع في السماء علواً ، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين . و إذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب ، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء . ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء . ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت ، بحسب ثباتها في القلب ، ومحبة القلب لها ، وإخلاصه فيها ، ومعرفته بحقيقتها ، و قيامه بحقوقها ، ومراعاتها حقّ رعايتها " [2]

---

[1] ديوان رسالة المشرق 30 .

[2] إعلام الموقعين عن رب العالمين 1/188 طبعة الوكيل .

و من السلف من قال : إن الشجرة الطيبة هي النخلة ، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح ، وقال الربيع بن أنس : ذلك المؤمن ، أصل عمله ثابت في الأرض ، و ذكره في السماء .

قال ابن القيم :

" ولا اختلاف بين القولين ، و المقصود بالمثل : المؤمن ، و النخلة مشبهة به ، وهو مشبه بها " [1]

❖ و من مكانك تحتها تشم عبير ورود بقربها ، من شجرة تسمى شجرة الطاعة ، شهدت منحة الرضوان ، لما أسبغت ، يوم نزلت : { لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً }

و يفتأ المستظل بظلها اليوم ساكن الفؤاد ، غير مضطرب لحرمان وفوات ، ينتظر فتحاً لحركة الإسلام تندكّ به صروح الضلال ، قد قدّم له التبايع على الموت ثمناً .

❖ فإن اختار الله لك المحنة سبيلاً لهذه المنحة ، وحَزَبَك الأمر : لجأت إلى شجرة الترحاب ، تطلب الطمأنينة عندها ، هازاً جذعها ، لتغدق عليك من بركتها ، وتفعل ما فعلت مريم عليها السلام لما ضاقت عليها الأرض ، فجاءها نداء: { و هزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطباً جَنياً فكلي و اشربي و قرّي عينا } .

فتأكل رطيبات وتقنع بها ، عازفاً عن بطر المترفين ، وتغرف من ثَمّ من سَرِي بين يديك يجري ، مستعلياً بعزة دونك مدارجها ، ترقى إليها و تَسري .

❖ و للنبي صلى الله عليه وسلم غِراس في هذه الغابة ، كما أن الحكمة أشهدت الشجر مواقف من سيرته الشريفة ، إيماء إلى هذا الارتباط ، ربما ، و إثارة لتطلع الغافل .

منها : شجرة الوفاء ، عنوان امتزاج الأرواح الذاكرة ، تنطق بالشكر ، و تحفظ الفضل لأهله ، و تعلن عِرفان الجميل .

وهي نخلة ، تَنَهَّدتْ عند الفِراق .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه :

(كان جذع يقوم إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما وُضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العِشار ، حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده عليه) [2]

أي كأصوات النياق التي أثقلها حمل بطنها وقَرُب مخاضها . وتلك من معجزاته ، عليه أفضل الصلاة و أزكى السلام .

جذع أنيلَ الشرف ، فوفى ، واجتمع له الحَنين ، فاستبدَّ به استبداداً ، فَرَّق منه الأنين .

وما من أحد إلا وفي بيته ديوان حديث ، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم واقف عنده يُفقِّه أمرَ دينه ، و يُلقنه شرائع الأسلام ، و الوفاء يليق لمثلنا ، نتعلمه من الجذع ، و نترجمه صُوراً من الاتّباع و الاقتفاء .

---

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين 1 / 188 – طبعة الوكيل .
[2] صحيح البخاري 2/11 .

❖ و شجرة خامسة تسمى شجرة الثبات ، تلوذ بها يوم تتوزع الناس الأهواء ، فتطلب النجاة معتـزلاً الفِرَق كلها ، (ولو أن تعضّ بأصل شجرة) [3]

وتصون لسانك إلا عن قولك مع عبد الله بن أبي مُليكة : " اللهم إنا نعـوذ بـك أن نرجـع علـى أعقابنا أو نُفتن " [2] فلأمر ما مما نقول كـان هـذا الاعتصـام بالشـجر ، فـي إلحـاح يزيـد معـه المعتصم شدّ نواجذه ضاغطاً ، لو تخيّلته ، لتردّد قلبك يهتـز في قلق ، بين رهبة من استرخاء يعتري فيَجرِف ، و أمل في إتمام يُنجي .

إلا أن رحيق هذه الشجرة يرويك إذ الناس تلهث عطشاً ، ويبل حلقك بارداً ، فتضاعف العـضّ مُبالغاً ، كأنك تمص الثبات راضعاً .

❖ و سادسة تُعرف بشجرة الأنس ، تُصاحبك عند الوحشـة ، و تخفـف رطوبتهـا جفـاف هـفواتـك . غَرَسها النبي صلى الله عليه وسـلم لمـا مَـرَّ بقـبرين يُعـذبان ، فكـان أن : (أخـذ جريدة رطبة ، فشقها بنصفين ، ثم غرز في كـل قـبر واحـدة ، فقـالوا : يارسـول اللـه : لِـمَ صنعت هذا ؟ فقال : لعـله يخفـف عنهما مالم يَيْبسا) [3]

ففهم بُريدة الأسلمي – رضي الله عنه – مـن ذلـك أنهـا سُـنة ، فأوصـى أن يُجعـل فـي قـبره جريدان ، فما زال الناس يُقلدونه في ذلك .

وقد لا نخلوا من لمم يكدر صفـو العمل ، أو من تَتَبع بفـضول لما في يد أهل الدنيا من أموال الاستـدراج ، يكون معه الأرق المتـلف ، واضطراب النوم ، فيضعف الاستعداد للفجـر الآتـي ، ولعل سويعة لك تحت سعف النخيل تخفف لهـفـك .

❖ ثم شجرة المفاصلة ، شهدت كيف يُتمم استـقلال الوسيلة عنـد المسـلم استــقلال الهدف ، و ذلك لما تبع مشرك جيش المهاجرين والأنصار حين سيره نحو بدر ، يريد أن يقاتل معهم ، حمية و نصرة لقومه ، فلما وصلوا شجرة ضخمة كانت مَعْلمـاً فـي الطريـق ، ذكرتهـا عائشة رضي الله عنها : لحق بهم ، فالتـفـت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : (ارجع ، فلن أستعين بمشرك) [4]

فمضى ذلك أصلاً ، لم يطرأ عليه الاستـثـناء إلا في حوادث ضيقة .

و تحاصر جبهات الأحزاب اليوم دعوة الحق ، تبثّ إرجافهـا ، متهمـة إياهـا بتخلـف عـن ركـب سياسي مجتمع ، فيقصد الدعاة الأشجار المعالم الضخام ، فتشـهد بانتــفاء اللقـاء ، و عيـب النزول بعد الاستعلاء .

❖ ولما فَقه الناس هذه الأمثال : تتابعوا في سباق يغرسـون ، فكـانت شـجرة ثامنـة عرفت بينهم أنها شجرة الاغتـفار .

وهي شجرة عنب كثيرة الثمر ، فكان غارسها إذا مَرَّ به صديق له : اقتطف عنقــوداً ودعـاه ، فيأكله ، وينصرف شاكراً .

---

[3] صحيح البخاري 9/65 .
[2] صحيح البخاري 9/58 .
[3] صحيح البخاري 2/14 .
[4] صحيح مسلم 5/201 .

فلما كان اليوم العاشر : قالت امرأة صاحب الشجرة لزوجها : ماهذا من أدب الضيافة ، ولكن أرى إن دعوت أخاك ، فأكل النصف ، مددت يدك معه مشاركاً ، إيناساً له ، و تبسطاً و إكراماً .

فقال : لأفعلن ذلك غذاً .

فلما كان الغد ، و انتصف الضيف في أكله : مدّ الرجل يده و تناول حَبّة ، فوجدها حامضة لا تساغ ، وتفلها ، و قطّب حاجبية ، و أبدى عَجَبه من صبر ضيفه على أكل أمثالها .

قال أبو حيان التوحيدي : فقال الضيف : قد أكلت من يدك ، من قَبلُ على مر الأيام حُلواً كثيراً ، و لم أحب أن أريك من نفسي كراهة لهذا تشوب في نفسك عطاءك السالف [1].

و ما هذه من قصص الأغاليط ، ولكنه مَثَل ضرب لك أيها الأخ الداعية فاستمع له ، ومجاز تدلف منه إلى العدل مفتوح أمامك .

فليس فيمن حولك من انبغت له العصمة و استقام له الصواب ، فإن أخطأ معك أخ لك فلا تجرمنَّك كبوته على الهجران ، و التأفف ، و الضجر و الانتقاص منه ، بل ولا على العتاب , إنما تتصبر ، و تكظم و تعفو في سرك مستحضراً جمال سابقاته ، و جياد أفعاله ، و حلو مكرماته ، إذ لعله قد أعانك على توبة أو ظاهرك عند تعلمك رديفاً و رفيقاً و سميراً ، أو علّمك باباً مما علّمه الله و طريفه .

❖ فإن استفدت و نشرت الانصاف ، فقد أذن لك في أن تستلقي تحت شجرة هيفاء ، كثيرة الثمار و الورود ، يخلب نظر الرائي جمالها ، و تُنطق المستمتع حمداً لرفيع ذوق غارسها .

اسمها : شجرة الزهد .

وهي شجرة قلبية فريدة ، و لم يَسبق صاحبها أحد إلى استنبات مِثلها ، فجاءت بدعة ، و وصفها فقال :

غَرسَ الزهدُ بقلبي شجره **** بعد أن نقّى بجهدٍ حَجَرَه
وسَقاها إثرَ ما أَودَعها **** كَبِدَ الأرضِ بدمعٍ فَجَّرّه
ومتى أبصرَ طيراً مُفسداً **** حائماً حول حِماها زَجَرَه
نمتُ في ظلٍ ظليلٍ تحتَها **** رَوّح القلبُ و نَحى ضَجَره
تم بايعت إلهي وكذا **** بيعة الرضوان تحت الشجرة

فانظروا أطوار رعايته لها ، وعنايته بها ، وكيف بدأ بتطهير قلبه مما هنالك من أحجار الحسد و الرياء و التكبر و سوء الظن ، و كيف سقاها بدموع الخشية في الأثلاث الأخيرة ، وكيف زجر شياطين الإنس و الجن لما حامت حول بذرتها تبغي التقاطها ، وقلّده ، و أفعل فعله : تورق لك أختها ، و تتفتّح لك منها الزهور بألوان و عطور ، فتنام تحتها كما نام ، تستشعر شعور أهل بيعة الرضوان ، و كأنك فيهم و معهم ، تغمرك نشوة البيعة على الموت في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام .

❖ و وعى الإمام حسن البنا – رحمه الله – فَن زراعة أشجار الإيمان ، فغرس لك الشجرة العاشرة ، وهي شجرة الحِلم ، و صفها مخاطباً الدعاة فقال : " كونوا كالشجر،

[1] الامتاع و المؤانسة 2/121 .

يرميه الناس بالحجر ، و يرميهم بالثمر " . ولقد أجاد وأفاد ، فإن في أكثر الناس سرعة جنوح إلى الجهل ، يميلهم إلى تكذيب دعاة الإسلام و إيذائهم بالباطل . ولو جهل الداعية مثل جهل الجاهلين ، وقابل الإساءة بإساءة ، لعفت رسوم الإحسان واندثرت ، و لكنه الصدر الواسع ، والاحتساب ، والاستغفار لقومه الذين لا يعلمون .

أما بعد :

فليس الإمام البنا بآخر غارس في غابة الإيمان ، و إنما وضعنا في يدك الفأس ، و أعطيناك البذر ، فأبذر : تجد الثمر و فيراً ، مباركاً .

فاخرج و تجوّل متأملاً : تجد أخلاق الإيمان قد مازجت الخضرة ، و إن لكل شجرة تعبيراً عن شيء من محاسن الخصال يمازج سجودها ، و يقترن بمظهر عبوديتها لله خالقها .

ومن ها هنا كانت سويعات الخلوة بين الشجر سبب ذكرى للغافلين ، و سبيل إنابة .

و مما ينبيك عن صدق ظننا الحَسَن هذا بالأشجار أن الله سبحانه ضرب مثل الكلمة الخبيثة المنافية للتوحيد كشجرة خبيثة ، لكنها ليست قائمة ، بل اجتُثتْ من فوق الأرض ما لها من قرار .

فليس من شجر واقف إلا و يعظك بكلمة من الإيمان .

7- حصار الأمل

هذه الحياة ، بجوانبها العديدة ، و تبدلات المجتمعات التي تحياها ، قد لايفهمها جيل المسلمين اليوم من دون الرجوع إلى نظرة واقعية لها ، متسمة بالبساطة ، مستقرئة للمحسوس المشاهَد منها .

ولا ريب في أن تجاوز مجرد الاستقراء ، وفهم الأمور معلَّلة مسبَّبة ، هو الوضع الأمثل ، المؤدي إلى الإيمان الأتم الأوفر ، وهو لما يُظن أنه من ظواهر التناقض أوجب ، و لذلك جاءت عقيدة الإسلام تُحلل وتُعلل ، ليحيا مَن حَيَّ عن بينة . ولذلك أيضاً حاولت الفلسفات

أن تـفهم محركات الحياة ، فقاربت كاقتراب سقراط من عقيدة التوحيـد ، أو أبعـدت ، كبعـد جمهور المحاولين .

و بتـفسيرات مَن شَرَحَ الكمال العقيدي الإسـلامي ، أو مـن خلال محـاورات الفلاسـفة فـي محاولاتهم الوصول إلى المثاليـة اتسـع القـول فـي القـدر ، والجـبر والاختيـار ، وسـر تـردد النفس بين التـقوى و الفجور ، و حكمة خلق الشيطان و القائه للنفوس حتى لتختـار الضـرر الواضح و تـأتي بمـا لا يـأتلف مـع الفطـرة ، و غَلَبَـة أهـل الشـر أحيانـاً مـع كـثرة إفسـادهم وإرهاقهم للناس ، وكثرة محن أهل الخير وصدود النـاس عنهـم مـع عظيـم بـذلهم ونفعهـم للناس ، و أمثال هذا . و لكن حياة اليوم اكتـنفها التعقيد المـادي مـن كـل أركانهـا ، وتركـت كثيراً من المسلمين - كشأن أغلب النـاس - فـي زحمـة مـن المتطلبـات والحوائـج تسـلبهم التـفرغ لتأمل ساكن يحللون فيه و يعلـلون .

و لذلك لم يعد هذا النظر التحليلي بممكن للجميع ، فضلاً عن أن يكون مفهوماً للجميـع ، مـع أن المسلم مطالب و مكلف - في الوقت نفسه - بأداء الواجب المفـروض عليـه فـي التـأثير الخَّير في الحياة ، بالأمر بالمعروف ، و الدعوة إليه ، والنهي عـن المنكـر ، ملـزم بـه إلزامـاً ، مُضيّق عليه في الاعتذار إزاءه .

ومن هنا تـفرض سرعة صراعنا الحاضر مع أشكال الكفر الجديدة أن نلجأ ، بسـرعة توازيهـا ، إلى بساطة النظرات الواقعية ، لإسعاف المسلم القـائم علـى ثغـور هـذا الصـراع بقناعـة و شجاعة تدعانه يلج دروب البذل التي تـفرضها واجبا ت رقابته على العالمين ، أمماً و أفراداً ، وأمره ونهيه ، مقوماً لهم ومُعدلاً .

ولن تجد الحركة الإسلامية ثنية بعيدة عن البدعة تطل بدعاتها من فوقها على منظـر بسـيط لحقيقة الحياة ، شامل في رؤيته ، كما تكون إطلالتها علـى حقيقـة المـوت . هـذه الحقيقـة المستغنية عن الدليل والتحليل ، والتي تؤذن فيهم وفي الناس كل صباح ومساء .

- عظمة المشهود : دليل الغيب

و ذاك من كمال عقيدة الإسلام وتمام فن المؤمنين بها في الدعوة إليها ، أنهـا و أنهـم فـي حرص على أن يسلك المتحيَّر أو المتردد الطريق الأدنى إلى الإيمان .

والمثـل في ذلك كمثـل الذي استغـلقـت عليه الغيوب التي أخبر بها الأنبياء عليهم السـلام ، من البعث والحساب ، والجنان والنيران ، فتمر به علـى سـيرة المصـطفى صـلى اللـه عليـه وسلم ، تريه إعجاز ما بين صدعه بالتوحيد فريداً مكذّبا ، وبين صـدع المـؤذنين بـالتكبير قبـل نهاية سيرة الراشدين من خلفائه على كـل روابـي أرضـين المـدنيات ، فتجعـل رؤيـة إعجـاز السيرة باب تصديق يدلف منه إلى ما يكـاد أن يكـون رؤيـة لـذلك الغيـب ، و تكـون قـد جعلـت الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم سبباً للإيمان بالله ، ولا نعلم فقيهاً يمنـع ذلـك ، غيـر الباقلاني ، فإنه يوجب الإيمان بالله تعالى قبل الإيمان برسله صلى الله عليه وسلم ، وليـس لمنعه وجه ظاهـر .

هذا بَلْهَ عن امتلاء القرآن بنداءات بسيطة و دعوة إلى تفكّر في خلق السماء و الأرض يقود إلى الإيمان بالله .

وكل ذلك من وجوه كمال عقيدة الإسلام ، بما نّوعت خطابها لأنصاف العقول و مقادير النباهة ، فمن أشكل عليه التعليل : أدخَلَتْه من باب ما يمكن حِسه ، وعوّضت عن التعليل بتكرار التذكير .

و الواقعية التي نريد أن نستفيد منها اليوم ليست إلا التي وفرتها عقيدتنا منذ أبعد الأمس ، حين أطنبت في التذكير بالموت ، و أنذر كِتابُها سكرةً لا بد أن تميد لها كل نفس مهما كانت عنها تحيد .

و لهذا وجب على خطة الحركة الإسلامية التربوية أن تعتمد التذكير بالموت ضمن أسسها ، و تأخذ بيد كل داعية ليلمس لمساً قريباً حقيقته وتفاهة الحياة ، فينطلق من بعدُ انطلاقته في البذل ، و يتخلص من ثِقلة إلى الأرض تحاول الأموال أن تُركس كل متزين بها إليها .

- لوحة من الفن الإسلامي :

و لئن جمع قادة الحروب جنودهم قبل كل معركة ، و حلّقوا بهم حلقة ، ليرسموا لهم على الأرض خطة تعبئة لحصار عدوهم ، فإن على قادة الحركة الإسلامية أن يرسموا قبل ذلك لحلقات الدعاة إلى الله خطة حصار الأجل للأماني الكواذب ، يذكرونهم إياه ، كما رسمه النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم لأصحابه على أرض المدينة ، ففتحت لهم – لما وعوا خطوطه – المدن .

و كان فيهم يومها : عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فوصف فقال : (خط النبي صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً ، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه ، و خط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط ، من جانبه الذي في الوسط ، وقال : هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به – أو : قد أحاط به – وهذا الذي هو خارج : أمله ، وهذه الخطط الصغار : الأعراض ، فإن أخطأه هذا : نهشه هذا ، و إن أخطأه هذا : نهشه هذا) [1]

وكان فيهم أيضاً : أنس بن مالك رضي الله عنه ، فوصف ، فقال : (خطَّ النبي صلى الله عليه وسلم خطوطاً ، فقال : هذا الأمل ، وهذا أجله ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب) [2]

وفي رواية : مثل ابن آدم جنبه تسع و تسعون مَنِيَّة ، إن أخطأته : وقع في الهَرَم .

و اكتملت بهذه الخطوط الشريفة لوحة من الفن الرمزي التجريدي فريدة .

إنه الإنسان الضعيف تغزوه الأعراض غ زواً فيه إلحاح . عدوى ، أو س رطان ، أو حريق ، أو غرق ، أو زلق ، أو سقوط ، أو اصطدام ، أو لدغة ، أو تسمم بطعام ، أو طلقة تائهة .

فإذا نجا من كل ذلك : كان له في الهرم ، و ضغط الدم وارتفاع نسبة السكر : تأديب أي تأديب .

---

[1] صحيح البخاري 8/111

[2] صحيح البخاري 8/111

فإن أطال النـَفـَس : اقتص منه الموت { قل إن الموت الذي تـــفرون منـه فـإنه ملاقيكـم } تعددت الأسباب والموت واحد ، يحاصر الأمل الشارد الذي يتوهم الإفلات حصاراً شديداً .
أمل أبيض وضّاء ، كلمـا بـرق : زهـت فـي نظـر صـاحبه الأمـوال ، و الجِسـان ، و العطـور ، و القـصور ، و المناصـب ، و الشـهادات ، فينسـى مـع نظـره المنسـرح المسترسـل متطلبـات دعوتـه ، و يصد عينه عن أرض مقدسة يـفسد فيها يهـود ، ولا يعـود أنفـه يشـم رائحـة شـواء دعاة الإسلام في الصومال ، ولا نتن جثث الأتراك تحت حائط في قرية قبرصـية ، وتتـــناسى أذنه وقع أحذية عساكر الهنادك في البنغال ..!
لكنه لو نظر ببصيرته لعرف أن أمله الوضاء إنما يـلـفه محيط أسود حالك ، يتيه فيما دونه من الظلمات ما لم يتبع في مشيه مخرجاً تدل عليه التـقوى .
فهو تَرَقُّب جميل ، لكنه يتـنغص .
وظل ظليل .. لكنه يتـقـلص .
ومطامع وراء الأودية والمفاوز ، وليس هو لما قـُدر له بمجاوز .
و أنفاس قبل كل ذلك .. تـُعدُّ .
ورحالة .. تـُشدّ.
وعاريته .. تـُرد .
و التراب من بَعد .. ينتظر الخد
فإنه ليس عُقبى الباقي غير اللحاق بالماضي .
وعلى أثر من سَلَفَ .. يمشي من خَلَف .
و ما تَمَّ إلا أمل مكذوب ..... و أجل مكتوب .

- رؤيــة تـــمـــتـــد

و " إن هذا النظر ، الذي وراءه التذكر ، الذي وراءه التـقوى ، الـتي وراءهـا اللـه ، هـذا وحـده هـو القوة التي تتـناول شهـوات الدنيا فتصفـّيها أربع مرات ، حـتى تعـود بهـا إلـى حقائقهـا الترابية الصغيرة التي آخرها القبر ، و آخر وجودها التلاشي " [1]
و " إن الذي يعيش مترقباً النهاية يعيش مُعداً لها , فإن كان مُعداً لها : عاش راضياً بها , فإن عاش راضياً بها : كان عمره في حاضر مستمر ، كأنه في ساعة واحـدة يشـهد أولهـا ويحـس آخرها ، فلا يستطيع الزمن أن ينغـص عليه مادام ينقاد معه و ينسجم فيه ، غيـر محـاول فـي الليل أن يبعد الصبح ، ولا في الصبح أن يبعد الليل " [2]
و بمثل هذا النظر و الترقـب الذي أكسبه الأنبياء عليهم السلام من قاتل معهم من الربّيين : صـفت النفـوس ، و ثبتـت بركيـزة مـن الطمأنينـة سـكنت معهـا و هـدأت ، فـرأت حيـن زال الاضطراب إطار الحقائق الترابية للشهوات الدنيوية ، فزال ما هنالك من تطلع زائد .
ثبات له من الرسوخ إزاء الأماني مثـل الذي كان ما بين رؤية إبراهيم عليـه السـلام للأفـولِ ، فلم يحب الآفلين ، وبين بقية من حنيفيته – كادت أن تتصل ببعثة نبينا محمد صلى الله عليــه

[1] وحي القلم للرافعي 2/198 ، l/ 75 مع جمل سبـقـتـهـما للزمخشري و ابن الجوزي .
[2] نفس المصدر السابق .

وسلم – أرَتْ أمية بن أبي الصلت حقائق الحياة ، فكاد أن يسلم ، فصرخ فيما حوله من جاهلية :

اقترب الوعدُ ، والقلوب إلى اللهو **** و حب الحياة سائقُها
ما رغبةُ النفسِ في البقاء وأن **** تحيا قليلاً والموت لاحِقها ؟
أمامها قائد إليه ، ويحدوها ****حثيثاً إليه سائقُها
قد أيقنت أنها تصير كما **** كان يراها بالأمس خالقُها
و إن ما جمّعت وأعجبها **** من عيشة مُرة مفارقُها
من لم يَمُت عَبطة يمت هَرَما **** للموت كأسٌ و المرءُ ذائقُها

فكانت صرخاته في عكاظ إرهاصاً ينبي عن نبوة جديدة ، أحيت لما جاءت سنن الترقب و النظر الذاكر ، فزهد أصحابٌ ورثوها بما هنالك ، فانقلبوا يصلحون للإنسان الواهم ما أفسدته شهواته ، وما متاع أحدهم عند الوداع غير بُردة قصيرة جعلت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يبكي ، و يعاف الطعام ، ويقول :

(قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني : كُفن في بُردة ، إن غُطي رأسه : بدت رجلاه ، وإن غُطي رجلاه : بدا رأسه , ثم بُسط لنا من الدنيا ما يُبسط ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا) [1]

- نسيان الموت أول الإنحراف

و ليس ذاك بكاء الأسى ، حَزناً أن لم يَرَ أخاه مصعباً مترفاً ، إنما هو بكاء الخشية من بعض مباح أن يكون حسنةً معجَّلة تمنعه الآجل ، كما أفصح ، ودموع حذر تخرجها روعة تجرد لجهاد يرى ذهاب أبطاله تباعاً ، فيخلف من بعدهم خلف تكثر في يده الأموال ، و يخاف أن يتنافسوها ، فيتوقف نبض فتوح الهداية .

يشبه بكاؤه ذاك عبرة ظلّ يغص بها حَلق أبي الدرداء مراراً وهو يقول : (أبكاني فراق الأحبة : محمد وحزبه) [2] , يُعبر بها عن وجله من جديد طرأ على سمت الجيل الثاني ، مثلما يريد بها إظهار ألمه لفراق أخوة كانوا له سبب هداية وتثبيت ، وفهمهم وفهموه ، في تعامل مسترسل ، ما التالي لهم - مهما حرص - بقادر على أن يُسلي عن قلب أبي الدرداء رضي الله عنه تسليتهم عنه . وكأنهم حالة ما زالت تستبد بكثير من الدعاة الغرباء ، لا يستطيعون لها وصفاً .

لكنه حزن المجاهد الفقيه ، ما كان ليهبط بأبي الدرداء إلى حسرات تستهلك الهمّة ، بل أدى به إلى صعود سُلم

التربية ، فاعتلى درج مسجد دمشق ، فقال : (يا أهل دمشق : ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ! إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ، ويبنون شديداً ، ويأملون بعيداً ، فأصبح جمعهم

---

[1] صحيح البخاري 5/121 .
[2] الزهد لابن المبارك / 84 .

بوراً وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً) [3] و لبث في أهل دمشق سنين يخفف أثر هجمة المال ، ثم أورث المقال أهله ، فكان الرجل منهم يأتي أم الدرداء يستنصحها فيقول : (إني لأجد في قلبي داءً لا أجد له دواء . أجد قسوة شديدة وأملاً بعيداً !) فتقول : اطلع القبور واشهد الموتى [1]

- إحياء الأمة بذكر الموت

وقارب الاستدراك في زمن الراشد الخامس أن يتم ، لولا السم .

فقد واصَلَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الطريقة ، فأرجف بذكر الموت قلوب جيله رهبة ، فنفضت رانها ثم انثنى ، فحرك إلى الشهادة حَنانها .

و ما أكثر ما وقف عمر موقف أبي الدرداء على درج مسجد دمشق ، ليجدد الوعظ القديم ، ويقرر لهم :

" إن الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، و باع قليلاً بكثير ، و نافذاً بباق " .

حتى إذا أيقنوا صواب الصفقة : راح يريهم من يومياتهم وواقعهم ، بعين التأمل ، مالا تراه عين الغفلة ، ويقول لهم : " ألا ترون في أسلوب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، وكذلك حتى تُردّوا إلى خير الوارثين ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشّيعون غادياً إلى الله ورائحاً ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجلُه , وطُوي عمله ، ثم تضعونه في صُدع من الأرض في بطن لحد ، ثم تَدَعُونه غير موَسَّد ولا ممهّد ، قد خلع الأسلاب ، وفارق الأحباب ووُجّه للسحاب ، غنياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدّم " . ولربما أجلس أحدهم أمامه و علّمه ، تعليمه عنبسة بن سعيد : " يا عنبسة : أكثر ذكر الموت ، فإنك لا تكون في ضيقة من أمرك ومعيشتك فتذكر الموت إلا اتسع ذلك عليك . ولا تكون في سرور من أمرك وغبطة فتذكر الموت إلا ضيّق ذلك عليك " [2]

حتى إذا ربّى حاشيته ، و خلصوا من وهم الأمل نجيّاً : راح ينشر مذهبه في الأمصار ، فيرسل على أعيانهم ، فيأتونه ، فيفشي لهم سِرّ القبر ، وما هو عند أولي الألباب بِسرّ .

قال التابعي محمد بن كعب القرظي رحمه الله :

(لما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعث إليّ وأنا بالمدينة فقدمت عليه , فلما دخلت جعلت أنظر إليه نظراً لا أصرف بصري عنه ، متعجباً ، فقال : يا ابن كعب : إنك لتنظر إليَّ نظراً ما كنتَ تنظره !

قلتُ : متعجباً

قال : ما أعجبك ؟

قلت : يا أمير المؤمنين : أعجبني ما حال من لونك ، و نَحَلَ من جسمك و نفي من شَعرك .

فقال : كيف لو رأيتني بعد ثلاثة ، وقد دلّيتُ في حفرتي ، وسالت حدقتي على وجنتي ، و سال منخري صديداً و دوداً ؟) [3]

---

[3] الزهد لابن المبارك / 291 .
[1] عيون الأخبار لابن قتيبة 2/371 .
[2] طبقات ابن سعد 5 / 372
[3] الزاهد للإمام أحمد /295 .

فشاع خبره في الآفاق ، حتى إذا أرسل إلى أعيان الكوفة : بادروه مبادرة ، و جلبوا شاعرهم أعمش همدان معهم ، يعلن له قناعتهم و براءتهم من أمل يطاره عمر ، قد عرفوا جده في إجلائه عن دار الإسلام .

و ينطلق الأعمش بين يدي عمر :

و بينما المرءُ أمسى ناعماً جذلاً **** في أهله معجباً بالعيش ذا أنَقِ
غِرّاً ، أتيح له من حَينِهِ عَرَضٍ **** فَمَا تَلبّثَ حتى مات كالصَّعِقِ
ثُمّتَ أضحى ضحى من غِبَّ ثالثة **** مُقنّعاً غير ذي روحٍ ولا رَمَقِ
يُبكي عليه و أَدنوهُ لمُظلِمَةٍ **** تُعلى جوانبها بالتُرب و الفِلَقِ
فما تَزَوَّدَ مما كان يَجمعُهُ **** إلا حَنوطاً و ما واراهُ مِن خِرَقِ
و غيرُ نَفْحَةِ أعوادٍ تُشَبُّ له **** وقلَّ ذلك من زادٍ لمُنطلِقِ

فتنهمر هاطلة دموع عمر ، وتختلط بأصوات نشغاته ، ليتجاوز تَرادّ صداها دهوراً تتعاقب ، يقود المربين المسلمين .

- عودة إلى الرشد :

ولئن توالى اليوم فراق الأحبة ووداع الرعيل الأول المتجرد المتواضع المؤسس للحركة الإسلامية المعاصرة ، لنبكيه مع هجمة المال بكاء أبي الدرداء ، أو بكاء سلمان الفارسي ، وفي رواية أخرى حذراً وغربة ، حين افتقدا ، رضي الله عنهما ، حزب محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن بكانا لا يحق له أن يهبط بنا إلى تأوهات تجاوزتها همتهما ، ولا بد لنا - مع بداية مرحلة جديدة تُرشِح دعوتنا لملء فراغ تركه فشل التطرفات القومية و الشيوعية - من ارتقاء درجات الاستدراك التربوي ، هامسين لكل داعية بمواعظ عمر ، لتعود لنفسه فتوتها و إقدامها ، وتطلعها الأخروي ، فإنه قد طال التجوال في البطالة ، و لربما حيَّر ، وامتد الركون إلى الاغترار و كأنه قد غيّر .

وكأن بالداعِ قد يبكي **** عليه اقربوهُ
و كأن القوم قد قاموا **** فقالوا : أدركوهُ
سائلوه ، كلموهُ ****حرّكوه ، لقنوهُ
حرِّفوه ، وجِّهوهُ **** مدِّدوه ، غمضوهُ
عجَّلوه لرحيلٍ **** عجّلوا لا تحبسوهُ
ارفعوه ، غسلوهُ **** كفِّنوه ، حنّطوهُ
فإذا ما لُفَّ في الأكفان **** قالوا : فاحملوهُ
أخرجوه فوق أعواد **** المنايا شيّعوهُ
فإذا صلوا عليه ****قيل : هاتوا و اقبروهُ
فإذا ما استودعوه **** الأرض رهناً تركوهُ
خلّفوه تحت رمسٍ **** أو قروهُ ، أثقلوهُ
أَبعدوهُ ، أَسحَقوه **** أوحَدوه ، افردوهُ

ودّعوه ، فارقوه ** اسلَموه ، خلـّـفـوه**
و انثنوا عنه و خلّوه ** كأن لم يعرفوهُ**

8- تِلالـنـَـا الـهـامِـدة

لئن رأينا أبا الدرداء رضي الله عنه بعد فـراقة حزب محمد صلى الله عليه وسـلم باكيـاً ، فـإنه سرعان ما انـقلب ضاحكاً ، ليقول : (أضحكني : مؤمل الدنيا ، والموت يطلبه , وغافل ، ليس بمغفول عنه , و ضاحك بملء فيه ولا يدري أرضى الله أم أسخطه) [1]
وإنما هـو ضحك التعجـب من صورة حياتية يشاهـدها كل مراقـب لحيـاة النـاس ، يـرى خلالهـا أنماطاً من الغـفـلة تحرف شدةُ طمع تصاحبها بعضَ الناس عـن رؤيـة مصـير رهيـب يتخطـف غيرَهم من حولهم ، وما لهم أدنى ضمان لدفعه لو جاءهم كما يجيء أولئك .
فالناس في غـَفـَلاتهم ** ورَحى المنيّة تـَطْحنُ**
وهي ضحكة قد تهجم على صاحبها لأول وهـلة حين يحار في تــفسير هـذه الظـاهرة ، لكنهـا سرعان ما تتحول إلى شفـقة ورحمـة تـأبى إلا أن تصـدم الغافـل صـدمة إيقـاظ تخرجـه عـن سكونه .

[1] الزهد لابن المبارك 84/554

رحمة حركت أبا الدرداء برفق فأتى إلى هذا الذي أضحكه فنقر بأصبعه على كتفه فالتفت ، فهمس في أذنه أن : (ويحك كيف بك لو قد حُفِرَ لك أربعُ أذرع من الأرض) [1] وما ندري مدى حظ ذاك المرء من التوفيق ، إن كان انخلع من غفلته أم سَدر فيها ولكنا ندري أن همسة أبي الدرداء ما زالت حية ، وأن ما ذرعه لم تزده الأيام سعة وطولاً ، وأن قبل هذه الأذرع الأربعة وبعدها قصة متصلة المشاهد ، يرويها الرواة لمن يلقي السمع وهو شهيد .

- يوم الحصاد :

مشهدها الأول : يوم الحصاد : يوم يحصد الموت الروح كما يحصد المنجل الزرع .

وليس في التشبيه مفارقة ، فإن حصاد هذه الأرواح يحوي مثل ذلك من الفوائد ، من بين موت شهادة ظاهر نفعه ، وموت دون ذلك يكون للغير سبب اعتبار و ادكار .

وذلك ما صوره الشاعر حين خاطبك فقال :

ما أنت إلا كزرع عند خُضرته **** بكلِ شيء من الآفات مقصودُ

فإن سَلِمتَ من الآفات أجمعها **** فأنت عند كمال الأمر محصودُ

أو قد يسمى هذا اليوم :

يوم الصراخ ، و ذاك حين يعرق الجبين ، و يتتابع الأنين ، وتكون الغرغرة ، وتبرد الأعضاء ، وتستبد السكرات ، فيفتضح الضعف ، فيعلو الصراخ .

باكيات عليك يندبن شَجوا **** خافقاتِ القلوب و الأكبادِ

يتجاوبن بالزنين ويذرفن **** دموعاً تفيض فيض المزادِ

فيأتي من يحبسْهن جانباً ، ليغسلوك على عجل .

عجلة يضجر الغاسل معها إن تباطأ من يحمي الماء ، فينادي : ألا إن وراءنا أشغالنا فاستعجلوا !!

كما هو الخلق القديم في الغاسلين ، منذ عصر من قال :

كأن لم أكن إذ احتث غاسلي **** و أحكم درجي في ثياب بياض

و ما هي إلا أذرع أربعة من القماش الرخيص ، كتلك من الأرض السبخة ، يحملك بعدها أصحابك على الرقاب

فلا تنس يوماً تسجَّى على **** سريرك فوق رقاب النَفَر

فإن كنت صالحاً : استبشرت تلك الساعة ، ولبثت تصيح طرباً قدّموني ، تصدق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال :

(إذا وُضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت غير صالحة قالت لأهلها : ياويلها ! أين يذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمع الإنسان لصعق) [2]

- ثم يوم الرقاد :

---

[1] الزهد لابن المبارك 84/554

[2] صحيح البخاري 2/103 ، 9/116 .

و تـنتـقل القصة إلى مشهد ثان يسمى : يوم الرقاد الطويل ، يبدأ بملكيـن يفتــنان الميـت ، ذكر خبرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقـال : (أوحـي إلـيّ أنكـم تـُفـتــنون فـي القبـور قريباً من فتـنة الدجال . فأما المؤمن أو المسـلم فيــقول : محمـد جاءنـا بالبينـات ، فأجبنـا وآمنا .

فيقال : نـَم صالحاً ، علمنا أنـك موقـن .

وأما المنافق أو المرتاب فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئـًا فـقلتـه) [1]

و ذلك هو الحوار المذكور في الحديث الآخر ، أنّ : (العبد إذا وضع في قـبره و تـولّى و ذهـب أصحابه ، حتى أنه ليسمع قرْع نعالهم ، أتاه ملكان فأقـعداه .

فيقولان له : ما كنت تـقول في هذا الرجل ، محمد صلى الله عليه وسلم ؟

فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله .

فيقال : أنظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعـداً من الجنة .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعاً .

و أما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يـقول الناس .

فيقال : لا دَرَيت ولا تَلَيتَ .

ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنية ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثـقـلين)[2]

فيستيقـظ الدود لتـلك الصيحة ، ويهجم هجومه فيستـسلم الرجل ويذعن ويأخذ يـقول كـأنه يستـزيد :

ضعوا خدي على لحدي ضعوه **** و مِن عَـفـْر التراب فوسِّدوه

وشـُـقـوا عـنه أكــفـاناً رقـاقـاً **** وفـي الـرمْس الـبعـيد فـغيـّبوه

فـلـو أبـصرتـمـوهُ إذا تـقـضـت **** صبـيحة ثـالثٍ : أنـكـرتـموه

وقــد مـالت نواظـرُ مـقلـتـيه **** عـلى وَجَنـاتــه ، فـرفضـتـمـوه

فهنالـك يكون السكون ، حيث تصفر الرياح علـى تلال هامـدة واطئـة ، فيصـل صـفيرُها إلـى آذان أمهاتٍ ثكالى يخرجن ببلاهة يـقودهن الصفير إلـى قبـور أبنـائهن ، لتسـأل كـل واحـدة منهن ابنها :

بأي خديك تَبدّى البلى **** و أي عينيك إذاً سالا ؟

فيجيبهن صوت بعـيد ، من حيث القبـر الأخير المنـزوي :

لم تبق غير جماجم عَرِيتْ **** بيضٌ تلوح ، و أعظمُ نَخِره

و يثـني آخر :

لا يدفعون هَواماً عن وجوههم **** كأنهم خشب بالقاع منجَدِلُ

أو يرد صوت ثالث :

هجودٌ ولا غير التراب حَشية **** لجنبٍ ، ولا غير القبور قِبابُ

أو يخبرهن رابع :

قد أصبحوا في برزخ **** و مـحـلـة متـراخية

---

[1] صحيح البخاري 2/103 ، 9/116 .

[2] صحيح البخاري 2/108 .

ما بـيـنهم متــفـاوت **** و قـبـورهـم مـتـدانـيـة

فمحلها مقـتـرب ، وساكنها مـغـتـرب ، بين أهـل موحشـين ، وذوي محلـة متـشاسـعــين ، لا يستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون تواصل الإخوان . قد اقتربـوا في المنازل ، وتـشاغــلوا عن التـواصل حتى طحنهم بكلكَلِهِ البلى ، وأكلهم الثرى [1] .

وبينما هم كذلك إذ جاءهم من ليس هـو بفـضولي ، وعساه عند عمر بن عبد العزيز أو عنبسه أو القرظي يتدرب ، فيسألهم :

أين الوجوه التي كانـت محجّبة **** من دونها تُـضربُ الأستار و الـكُـلَـلُ

و يميل بأذنه يريد جواباً منهم ما هـم بـقادرين عليه ، فتـنـوب عنهم التـلة الصغيرة تجيب ..

و أفـصـح الـقـبـرُ عنهم حين ساءلهم **** تـلك الوجوهُ عليها الدودُ تـقـتتلُ

قد طالَ ما أكـلوا دهـراً و ما نعِموا **** فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا

فيتولى عنهم بجناح من الرهبة ، خفيض ، و دمع على الخدين يفيض ، يودع ويندب و يـقول :

أهـل الـقـبـور أحبتِي **** بعد الجذالة و السرور

بعد الغَضارة و النضارة **** و التـنعّم و الحُبور

بعد الحِسان المؤنسات **** و بعد ربّات الخدور

أصبحتم تحت الثرى **** بين الصفائح و الصخور

- حـسـاب و كـتـاب :

فيظلون بعد وداعه في انتظار مشهد ثالث يسمى : يوم البعث

يوم إنشقاقُ الأرض عن أهل البلى **** فيها ، و يبدو السخط والرضوانُ

يـوم الـقـيـامـة ، يـوم يُـظـلـم ظـلـم **** الـظالـمـين و يــشـرق الإحسانُ

{ أن تـقولَ نـفسٌ : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله } و تــنادي أخـرى : { هـل إلـى مَردٍّ من سبيل }

و تستغيث أخرى : { ياليتـنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل } .

فهنالك ثالِثة يكون الوجل :

هناك إن كنـتَ قـدَّمت مُـدخـرا **** تُسقى من الحوض ماءً غـير ذي أسَـنِ

وتُــنـشر الصحفُ فيها كل مُحتـقـبٍ **** من المخازي وما قدّمت مـن حَسَـنِ

قد كنتَ تـنسى وتـلكَ الصحفُ محصية **** ما كنت تأتي ، ولم تَظلِم و لم تَخُنِ

فالسعيد ذاك اليوم من كانت له في يومنا هذا بهذا عبرة ، تَستخرج مـن عينـه و قلبـه عَـبرة ، تـنطق لسانه رهبة وأسفاً ، ليدندن في الـلـيالي :

واحسرتي ، واشِقوتي **** من يوم نشر كتابيه

وأطولَ حُزني إن أكن **** أوتيـتـه بـشمـاليـه

وإذا سُئـلت عن الخَطأ **** ماذا يكون جوابيه ؟

و احَرَّ قلبي أن يكونَ **** مع الـقـلوب القاسية

كلا ولا قـدمت لـي **** عـملاً لـيوم حـسابـيـة

---

[1] أسطر لبعض الزهاد .

بــل إنني لشقـاوتي **** وقسـاوتي و عـذابـيـه
بارزت بالــزلات في **** أيــام دهــرٍ خـالـيـه
من ليس يخـفى عنه من *** قُبح المعاصي خافية

- ما بعد هذا إلا التشمير

فأما صاحب القـلب الحي فنقـُصّ له قصة الأيام الثلاثة هذه . وأمـا أمـوات القــلوب فـذرهم في ركستهم يتخبطون .

{ ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الأمل فسوف يعلمـون } تَمتّـعَ آكلـةِ الخَضِـرَةِ الـتي حـدثنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (آكِلة الخَضِرَة أكلت .

حتى إذا امتَدت خاصِرتها : استـقـبـلت الشمسَ .

فاجترت وثــَلطت ، وبالت .

ثم عادت فأكلت)

هكذا كالخرفان تماماً ، يأكـلون و ينامون ، فيتغوطون ، فيعودون إلى الأكل ، ولا شيء آخر .

تعست حياتهم !!

فتدبر أمرك أيها المسلم و تأمل .

وقـف ولا تعجل .

فإنك لممتحَن ، و بكسبك مرتَهَن .

و إنه :

سيأتيك يوم لست فيه بمكرَم **** بأكثر من حَثو التراب عليكا

بل يرى أصحابك ذلك غاية الإكرم لك .

يقولون : كان رحمه الله صديقاً لنا ، ولا بد أن نكرمه ، وواجب أن نحضر لنحثوا التراب عليه .

وكم قد رأينا فـتى ماجداً **** تـفـرّع في أسرة ماجـده
رماه الزمان بسهم الردي **** فأصبح في التـلة الهامدة

فاذكر و اتعـظ و لا تـنشغل بالأمل عن ذكـر قـصة الحصار والحصـاد والأجـل عَسَــيتَ بفضـل الله تـنجو ، و تـفوز ببعض ما المؤمن يـرجـو ...

9- مـــدارس الـــمـــوت

خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطوطه ، فاستيأس الأمل ، فبات الأصحاب يحبون أحب الأمرين إلى الله : حياتهم أو الموت .

إلا الفاروق عمر رضي الله عنه ، فإنه جمع بين هجر الأمل ، والجزع من الموت و كراهته ، فاتحاً بجمعه هذين النقيضين باباً يلج الموفق منه إلى زيادة في فقه الدعوة . وذاك حين طعنت المجوسية أبا حفص طعنتها ، فثغب جرحه دماً كثيراً أخرجه إلى جَزَعٍ وافقَ دخولَ عبدالله بن عباس ، رضي الله عنهما ، عليه ، فَفَغَر فاه مستغرباً ، فقال عمر : " أما ما ترى من جزعي ، فهو من أجلك وأجل أصحابك " [1] .

و بهذه الحروف اختتم رضي الله عنه سيرة أتعبت كل دعاة الإسلام من بعده .

فالحياة يطلبها الغيور طلباً ، ويجزع لورود الموت جزعاً ، لما سيحول بينه وبين خدمة المسلمين والقيام بأمور دعوة الإسلام .

وغدا هذا المفهوم ، بهذا المقدار ، يمثل الوجه الآخر للتربية الحركية الكابحة لانطلاق الآمال الدنيوية ، يمارس الداعية خلال نظره المتكرر إليها إيجابية تبعده عن يأس سلبي وتزهيد بالعمل يسببه نظر ناقص إلى مجرد كبت الآمال .

- مدرسة الكوفة تواصل الذكرى

ولئن كشفت هذه الكلمات في نهاية خلافة عمر - من جانب - للغافلين سر ما رآه المسلمون منه من تعب و سهر و تفكّر ، فتأهبوا للاقتداء ، فألهاهم عبدالله بن سبأ زمن عثمان رضي الله عنه ، وأذهلهم ، فإن تشميراً رآه الناس في بداية خلافة علي رضي الله عنه ، كان بحاجة - من جانب آخر - بعد ذاك الذهول ، إلى كلمات أخرى تعظهم ، و تعيب عليهم أملاً وجد له أثناء سنوات الفتنة مجال نمو ، بردت معه همم المقتدين .

---

[1] صحيح البخاري 5/16 .

و من هذه الحاجة نشأت مدرسة الكوفة في التذكير بالموت ، إذ طفق علي رضي الله عنه يجمع الناس في مسجد عاصمته ، ويصارحهم و يقول : " إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل ، و اتباع الهوى ، فإن طول الأمل يُنسي الآخرة ، و إن اتباع الهوى يصد عن الحق " [1] .

و تنتدب جمهرة من فقهاء أصحابه نفسها لمعاونته ، فيقوم الصحابي الأغلب بن جشم العجلي بعده ، فينشد بين يديه قصيدته التي مطلعها :

المرء تواقٌ إلى ما لم ينل **** و الموت يتلو ، ويلهيه الأمل

فيتلوه سيد زهاد التابعين : أُويس بن عامر القرني ، فيقول : " يا أهل الكوفة : توسّدوا الموت إذا نمتم ، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم " .

حتى إذا قُتل علي بعدما خشعت القلوب وادكرت استمرت ثلة من أصحابه على سمته في الوعظ ، فكان الربيع بن خثيم يقول لهم :

" أكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله " [2] . ويحفر له قبراً ، ويأخذ ينزل فيه كل يوم يتمدد ، ثم يقوم يذكر لهم مشاعره لما يكون بقعره .

ويذكر سعيد بن جبير لهم مقدار تصفية كلمات علي لقلبه ، فيقول : " لو فارق ذكر الموت قلبي : خشيت أن يفسد عَليَّ قَلبي " [3]

وكل هؤلاء : سعيد ، والربيع ، وأويس ، رحمهم الله ، والأغلب رضي الله عنه ، من ثقات أهل الكوفة الذين رباهم علي رضي الله عنه ، فلما ماتوا : أورثوها لآخرين يحفظون للكوفة سمتها ، فكان عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي يرتقي المنبر و يسألهم : " كم من مستقبل لا يستكمله ، ومنتظر غداً لا يبلغه . لو تنظرون إلى الأجل و مسيره ، لأبغضتم الأمل و غروره " [4]

فإذا نزل : صعد عمر بن ذر ، فخطبهم :

" أما الموت فقد شَهَرَ لكم ، فأنتم تنظرون إليه في كل يوم وليلة ، من بين منقول عزيز على أهله ، كريم في عشيرته ، مطاع في قومه ، إلى حفرة يابسة وحجار ضُم ، ليس يقدر له الأهلون على وِساد إلا خالطه فيه الهوام ، فوساده يومئذ عمله . ومن بين مغموم غريب ، قد كثر في الدنيا همّه ، وطال فيها سعيه ، وتعب فيها بدنه ، جاءه الموت قبل أن ينال بغيته ، فأخذه بغتة . ومن بين صبي مرضَع ، ومريض موجَع ، ورهن بالشر مُولَع ، وكلهم بسهم الموت يُقرع "

فلما مات هؤلاء النفر ، واجتمع علمهم وعلم شيوخهم عن علي في سفيان الثوري : تولاها طريقة ، واتخذ الموت نشيداً ، حتى قال أحد تلامذته : " ما جلست مع سفيان مجلساً إلا ذكر الموت ، وما رأيت أحداً أكثر ذكراً للموت منه " [5]

وهكذا أعطت مشيئة الله تعالى لمدرسة الكوفة من بعد عمر بن الخطاب دَورها في رقابة سواء سبيل أمة الإيمان ، وحفظه من الإنحراف وطغيان الآمال ، وشَرفها ، فتمثلت بها

---

[1] الزهد لابن المبارك / 86 .
[2] طبقات ابن سعد 6 / 184 .
[3] الزاهد لأحمد بن حنبل /371 .
[4] الزهد لابن المبارك 4
[5] تاريخ بغداد 9/157 .

بقية نهي عن الفساد ، تكثر حيناً ، أو تقل من دون انقراض ، ليست دعوة الإسلام المعاصرة غير استرسال في كفالة القدر لوجودها ، وما وراثتنا لها إلا وراثة قربى في النسب واشتراك في المورد .

- فبرز لها بالشام عمر

وكان الذي رويناه من استدراك عمر بن عبدالعزيز في أواخر المائة الأولى حلقة ضمن دعوة البقية الرقيبة على سير القرون ، اتصلت بمدرسة علي الكوفية عن طريق عون ابن عبدالله ، وعمر بن ذر ، وأعشى همدان الشاعر ، الآنف ذكرهم ، اتصالاً اعتيادياً كما هو شأن العلم في تقلبه في البلاد ، و شأن البقية الناهية في تقلبها عبر القرون ، لكنها حلقة استطاعت أن تستأثر بحيازة إعجازين قصرت عنهما الحلقات التي بعدها :

* إعجاز أكسبه إياها موضع الخلافة العالي ، فشخصت القدوة المهابة من بعد بعض انقطاع ، فتسارع الإصلاح ، فاختصر الزمان ، فكانت هنيهة قصيرة أثرت دهوراً طويلة .

* وإعجاز بلاغي آخر ، وليد تفكر وعمر ، وربيب نغمة من فصاحة عربية كانت ما تزال تنساب من فيه ، بها فضح عيب تمتع جيله بأسلاب الهالكين ، وبها راد لقرون تليه خبر موت أعمله حدسه أنها ستكون عنه من اللاهين ، فحدثها حديث صدق عن :

(قبور خرقت الأكفان ، ومزقت الأبدان ، ومصّت الدم ، وأكلت اللحم . تُرى : ما صنعت بهم الديدان ؟ مَحَت الألوان ، وعفرت الوجوه ، وكسرت الفقار ، وأبانت الأعضاء ومزقت الأشلاء .

تُرى : أليس الليل والنهار عليهم سواء ؟

أليس هم في مدلهمة ظلماء ؟

كم من ناعم و ناعمة أصبحوا وجوههم بالية ، وأجسادهم عن أعناقهم نائية ، قد سالت الحدق على الوجنات ، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً ، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيراً ، حتى عادت العظام رميماً . قد فارقوا الحدائق ، فصاروا بعد السعة إلى المضائق) .

ثم راح ينادي حتى صحل صوته : (ياساكن القبر غدا ، مالذي غرك من الدنيا ؟

أين دارك الفيحاء ؟

و أين رقاق ثيابك ؟

ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى ، وبأي خديك يبدأ البلى ؟)

وبمثل هذا : استأسر فقهاء الأمصار لعمر ، فجمع قلوبهم حوله ، و جعلهم له أعواناً في تعميم رشده ، و أخرجهم إلى مشاركة جماعية في تعليم الأمة و تربيتها ، متناسقة مع أسلوبه ، أغنت حكمه عن سيف وحساب ، و استثمر بها طاقات خير دفينة مغروسة في أصل فطرة الناس ، قدم لها منه القيادة ، فقدمت له منها المتابعة .

- مدرسة البصرة تؤيد :

ولئن أسرع عنبسة أو القرظي الاستجابة لعمر ، في أرهاط من الشاميين والمدنيين ، فإن الحسن البصري ، عبر عن سيادته الجيل الأوسط من التابعين طراً ، وبتأثير ما اقتبسه من علي ومدرسته الكوفية ، قد أنزل البصرة مكانة التقدم في التأثير التربوي في الأمة من قبل أن يحكم عمر ، مكنها من بعد أن تسبق الربوع الأخرى في إعادة رسم خطوط حصار الأمل ، ورواية قصة الرقاد الطويل ، وتأكيد مذهب عمر وترويجه ، حتى غدت مواعظ الحسن أداة تربوية ، تكتب في نسخ وتوزع مع بريد الخلافة كما توزع الصحف اليوم ، فيجد المسلم المرابط في أقصى الثغور في شدة نبراتها حماسة يهتز بها للشهادة قلبه ، تعادل رقة يرجف لها بدن المتعلم العاكف ، والساذج المزارع ، و التاجر الساعي .

وهكذا وافقت دمعات الرشد فهماً لدى إمام البصرة ، وبدأت الآمال تقصر بمآل إلى الردى يصوره الحسن و يحذرها أهوالاً تستقبلها ليست سكرات الموت إلا بواكر حسابها وعَتب أبوابها ، فراح ينادي :

(المبادرة ، المبادرة .

فإنما هي الأنفاس لو حسبت : انقطعت عنكم أعمالكم , إنكم أصبحتم في أجَل منقوص ، والعمل محفوظ ، و الموت – والله – في رقابكم ، و النار بين أيديكم ، فتوقعوا قضاء الله عز و جل في كل يوم و ليلة .

لقد فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لُب فرحاً و إن أمراً هذا الموت آخره ، لحقيق أن يُزهد في أوله .

وإن أمراً هذا الموت أوله ، لحقيق أن يُخاف آخره) [1]

- ميزان بصري في فقه الدعوة

وصاغ الحسن خلال ذلك ميزاناً إيمانياً يقدم له الواقع المرئي كفاية من دلائل الإقناع ، ربما نشتق له اسم (ترجيح التخويف) ، ساقه في صورة خطاب ، فقال : " إنك والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً ، خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف " [2]

وهو ميزان يمثل بعضاً مما أضافه الحسن إلى فقه الدعوة . فالخوف العاجل عنده ، المؤدي إلى التقوى ، المؤدية إلى أمن آجل في ظلال الجنان : خير من مدّ عريض للنظر إلى صفات الله سبحانه في الرحمة واللطف والغفران .

وكلاً من الحالتين تُراد ، والأمر في حقيقته معلق بنسبية واضحة ، ربما أوجبت تخفيف رهبة البعض بأبواب من الرجاء أغلقتها عليهم شدة الخشية ، ولكن هذا المعدن فريد ، والغرور يلف الجمهرة العظمى ، وما من دواء له إلا الإخافة بقصة التلال الهامدة .

و في التنبيه على هذه النسبية يقول ابن الجوزي :

---

[1] الزهد لأحمد بن حنبل /285 و مصادر أخرى .
[2] الزهد لابن المبارك /102 .

" إذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم ، وفسدت في الخير أعمالهم : أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة فأما إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت ، وأحاديث الآخرة تُقرأ عليه ، و تجري على لسانه ، فتذكاره الموت زيادة على ذلك لا تفيد إلا انقطاعه بالمرة .
بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى ، الكثير الذكر للآخرة ، أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت ، ليمتد نَفَس أمله قليل ، فيصنّف ، و يعمل أعمال خير " [1]

- مدرسة بغداد تجنح للبساطة

وقد أضافت المدرسة البغدادية من بعد تلك المدارس تطويراً مهماً إلى فقه الزهد وكبت الآمال .. يوم أدخلت عنصر البساطة في التذكير على لسان رائدها بشر بن الحارث الحافي لما أتاه آت وطلب منه الموعظة فقال له :
" إن في هذه الدار نملة تجمع الحبَّ في الصيف ، فتأكله في الشتاء ، فلما كان يومُ : أخذت حبة في فمها ، فجاء عصفور فأخذها والحبّة ، فلا ما جمعت أكلت ولا ما أمَّلت نالت " [2]
هذه هي الحياة عند بشر : إنسان يجمع ، فيأتيه الموت ، فيأخذه وما جمع .
هكذا ، بلا أبيات شعر ، ولا ألوان من الجناس والبديع نطلبها اليوم تشغلنا عن جوهر المواعظ .
لأولي الألباب كفاية بيوميات العصفور والنمل .
ثم بلغت هذه البساطة البغدادية ذروتها لما تولى الإمام أحمد زمام التربية ، فذهب فيها لأبعد مما ذهب قرينه بشر ، فسكت ، حتى أن الكتب تكاد أن لا تورد له في المواعظ قولاً ، وعوّض تلامذته وأجيال الأمة عن ذلك بوجه معبّر كأنه يطلع إلى القيامة ، وصبر على العذاب والإغراء ثبتت به الأمة إزاء دعاية المبتدعة ، وسيرة في التعفف و التقلل تستحي منها نوايا الإثراء.
فلما مات سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وانتقل شيخ البخاري الحسن بن عبدالعزيز الجروي من مصر إلى بغداد وسكنها ، وصار في عداد البغداديين : رأى ضرورة استمرار القدوة الصامتة ، فم يأخذ من إرث أبيه شيئاً ، لشبهة خالطته ، وقال : " من لم يردعه القرآن والموت فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع " [3]
قال صاحب تاريخ تنيس : " وكان أبوه ملكاً على تنيس ، ثم أخوه علي ، ولم يقبل الحسن من إرث أبيه شيئاً ، وكان يُقرن بقارون في اليسار " [4]

- التربية بالاعتراف :

وطفق المربون بعد أحمد والحسن الجروي يمارسون طريقتين في التربية : فمن حاز مرتبة أحمد وزهده و ورعه و حياة قلبه : قلّده في سكوته ، وترك حاله تخبر الأبصار .

---

[1] صيد الخاطر / 158 طبعة الغزالي .
[2] تاريخ بغداد 3/321 .
[3] طبقات الحنابلة 1/135 .
[4] تهذيب التهذيب 2/292

ومن لم يحز مثل سمو أحمد ، ولبث دون ذلك : سلك طريـقة الاعتراف ، فيستـفـزُّ الأسماع ، كما استـفزها الخليفة العباسي الراضي بالله ، لما جمع ببغـداد الغـافلين ، وحـاول مـن بعـد المتوكل أن يتـشبه بعلي وعمر بن عبدالعزيز و يـقـلد طريقتهما ، فراح ينشد لهم من نظمه :

كل صفـو إلى كَدَر **** كل أمنٍ إلى حَذر
ومصير الشباب للموت **** فيه أو الكَبِر
أيها الآمل الذي**** تاه في لُجّة الغَرَر
أين من كان قبلنا **** دَرَسَ الشخصُ والأثر
سيردُ المعارَ من **** عمرُه كله خَطر
ربّ أني ذخرت عندك **** أرجوك مُدّخر
إنني مؤمن بما **** بين الوحي في السوَر
و اعترافي بترك نفعي **** وإيثاري الضَرر
رب فاغفر لي الخطيئة **** يا خَيرَ من غـَفـَر

أو كما استـفزها بالأندلس آخر ، حين راح يعترف :

إلى كم أقول ولا أفعلُ **** و كم ذا أحوم ولا أنزِلُ
وأزجر عيني فلا ترعوي **** وأنصح نـفسي فلا تـَقبلُ
و كم ذا تعلّل لي ، ويحَها **** بِعَلَّ وسوف وكم تمطل ؟
وكم ذا أُؤمل طول البقا **** وأغفل والموت لا يغفلُ ؟
و في كل يوم يُنادي بنا **** منادي الرحيل : ألا فارحلوا
كأن بي وشيكاً إلى مصرعي **** يُساق بنعشي ولا أُمهـلُ [1]

- و بـــعـــد :

و بعد يا داعية الإسلام .. إنَّ من جَدّ وجد ، وليس من سَهر كمن رقـــد . فلا تكـن ممـن تضـمّه الكتائب ، وقلبه عن المشاركة غائب . و هذا الموت منـك قيد شبـر الشابـر .

و هذا دبيب يُسارق نفسك ساعتها .

و إن سِلَعَ المعالي غاليات الثمن ، و إنما ثمنها اتباع مدارس الكوفة والشام ، ومدرسـة إمـام البصرة الحَسَن , فانظر لنـفسك .

و اغتـنم وقتـك .

(فإن الثواء قليل ، والرحيل قريب ، والطريق مخوف ، والاغـترار غـالب ، والحظـر عظيـم ، والناقد بصير) [2]

وفقنا الله و إياك .

---

[1] نفح الطيب 4 /275

[2] اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي /16 .

10- لا يـَـا قـــيــود الأرض

لئن كان الدعاة إلى الله قـد فقهــوا طريـق الاستــدراك ، ورفضـوا الانصـياع للفسـاد الـذي استـشرى ، وتمردوا على عمليـة التــرويض ، وبـدأوا جهـود تــثبيت وتربيـة لأولـي الفطـرة الصحيحة ، فإن غيرهم بات يتألم لواقع المسلمين و يتـأوه ، ولا يعدو إبداء الحزن ، وقبع في بيته أو مسجده ، يـلـفه اليأس ، تاركاً دعاة الإسلام وحدهم في المعركة ، يظن أنه بحزنه قــد أبرأ ذمتـه ، بل ربما يظن أنه قد كسب المناقـب .

وليس الأمر كما ظن وإن اقترن بحزنه ما يثاب عليه ويؤجر ، فإن المسلم الذي يبغي درجـات الكمال يحزن لواقع المسلمين ، لكنـه يـترك بيتـه وراءه ظهريـاً ، و يتصـدى للنـاس ، واعظـاً وناصحاً ومربياً ، وخائضاً بهم دروب الجهـاد .

قال ابن تيمية رحمة الله : " قد يـقـترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليـه ويحمـد عليـه ، فيكـون محموداً من تـلـك الجهة لا من جهة الحزن ، كالحزين على مصيبة فـي دينـه ، وعلـى مصـائب المسلمين عموماً ، فهذا يثاب على مافي قلبه ، من حب الخير وبغـض الشـر ، وتوابـع ذلـك ، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى تـرك مـأمور مـن الصـبر والجهـاد وجلـب منفعـة ودفـع مضرة ، نهي عنه ، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه " [1]

فافهم هذا يا من تتمنى أن يغيـر الله الأحوال بلا عمل منك ومن أمثالك .

وحولك من يعمل و يناديك ...

أيها المشدود في تيه الأماني
خفف الآهات دع عنك التواني
لا تبالي إن بغت كف الزمان
واعتصم بالله ذا أسمى وأفضل
أنت تدري أيها الحيـران عنّا
كيف فوق الشمس أزماناً حَللنا
أيها المذهول لا تيأس فإنا
لبناء الأمة العصماء نعمل [2]

فكن من العاملين أيها المبهـور .

---

[1] مجموع الفتاوي 10/17
[2] لمحمود آل جعفر في حنين إلى الفجر / 140 .

إنك إن كنت تعرف أنا خيـر من يعمل ، و أطهـر من يتصدى ، فلم تهـرب منا ؟

" إن الحسرة والتألم وتصعيد الزفرات ليست سوى وسيلة سلبية لا تجرح قوى الباطل - بـل لا تخدشها - ، وهي لا بأس بها لكنهـا تـنقلب إلـى أمـر بـالغ الخطـورة إذا لـم يعقبهـا عمـل إيجابي مثمر ، إذ تـكون وسيلة لامتصاص النقمة على الأوضـاع الفاسـدة ، ومـن ثـم الركـون إليها ، وعلى أحسن الفروض : استمرار هذه النقمة ، ولكن بشكل جامـد لا حيـاة فيـه يـؤدي إلى شلـل الحركة . وليس أفضل لقوى الباطل من هذا الوضع " [1]

وإنما الصواب في كل حين أن تسلك طريق الهمة ، وهـو الطريق الذي وصفه قـدوة العـراق آخر الزمان العباسي ، الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله ، فكان ينادي أهل بغـداد بصـوته الهادر أن : " سيروا مع الهمم العالية " [2]

لا تتواروا ولا تـنسحبوا ، بل سيروا مع الهمم العالية .

ولا زال هذا الطريق هـو الطريق المعبد الوحيد في خارطتـنا .

أما الجبن ، والانـزواء ، والتأوه ، فصحارى مهلكة .

وجرب غيرك الأعوان ، وأعطاك النتيجة ، فقال :

لي معينان : همة واعتـزام .

لم يجد غيرهما . و خانته بـقـية الأعـوان .

وعونك المخلص ما أوصلك إلى اللذة الصادقة في الحياة . ومغشوش واهـم ذاك الـذي يظـن اللذة فحسب لذة الـقـرب من الزوجة والأولاد والأموال ونيل الترقيات الوظيفية .

و إنما السعادة في رضى الله .

و إنما اللذة لذة البذل والفداء .

و نداء الشيخ عبد القادر يأتينا عبر الـقـرون :

" أنتم غـفـل عما القوم فيه ، تواصلون العَناء في الكد علـى النفـوس الـتي هـي عدوتـكم . ترضون أزواجكم بسخط ربكم عز وجل . كثير من الخلق يـقـدمون رضا أزواجهـم وأولادهـم على رضا الحق عز وجل " .

وما بغير البذل ينطق قاموسـنا ، " لكـن يغلـط الجفـاة فـي مسـمى الحيـاة ، حيـث يظنونهـا التـنعم في أنواع المآكل و المشارب و الملابس و المناكلح ، أو لذة الرياسـة و المـال و قهـر الأعداء والتـفنن بأنواع الشهوات ، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم ، بل وقـد يكـون حظ كثير من البهائم منها أكثر مـن حـظ الإنسـان ؛ فمـن لـم تكـن عنـده لـذة إلا اللـذة الـتي تشاركه فيها السباع و الدواب و الأنعام فذلك ممن ينادي عليه مـن مكـان بعيـد . ولكـن أيـن هذه اللذة من اللذة بـأمر إذا خـالط بشاشـته القلـوب سـلى عـن الأبنـاء والنسـاء والأوطـان والأموال والإخوان والمساكـن ، ورضي بتركها كلها والخـروج منهـا رأسـاً , وعـرض نـفسه لأنواع المكاره والمشاق ، وهو متحل بهذا منشرح الصـدر بـه ، يطيـب لـه هجـر ابنـه و أبيـه و صاحبته و أخيه لا تأخذه في ذلك لومة لائم ، حتى أن أحدهم ليتـلقى الرمح بصـدره و يقـول :

---

[1] الفتح الرباني /297 .
[2] الفتح الرباني /298 .

فزت و رب الكعبة . و يستطيل الآخر حياته حتى يـلـقي قوتـه من يده و يــقول : إنهـا لحيـاة طويلة إن صبرت حتى آكلها ، ثم يـتـقـدم إلى الموت فرحاً مسروراً " [1]

هذا ما نعرفه من شأن الداعية . لا يكون كامل العبودية لله حتى يصل إلى مثـل حال إبراهيم عليه السلام ، لما استسلم وأطاع ووضع السكين على حلق ابنه ....

و بهذا وصفه اقبال ..

ليس يدنو الخوف منه أبداً **** ليس غير الله يخشى أحداً

لحنه في القـلب ناراً اشتعلاً **** من قيود الزوج والولد خلا

معرض عما سوى الله الأحد **** يضع السكين في حلق الولد [2]

إن من واجبات المسلم إزاء محاولة استـئناف الحياة الإسلامية وإرجاع الإسلام إلى الهيمنــة من بعد الحدث الهائل في تـنحيته هي واجبات واضحة بينة ، وأكثر مـن نـراه مـن المسـلمين المتحسرين أصحاب الأماني المتأوهين " يكـون عالمـاً بهـا ، ولا تــنهض همتــه إليهـا ، فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً ، و قلبه عن كماله الذي خلق له مصدوداً منكوساً ، قد أسـام نفسه مع الأنعام ، راعياً مع الهمل ، واستطاب لقيمات الراحـة والبطالـة ، واسـتلان فـراش العجز والكسل ، لا كمن رفع له علم فشمر إليه ، وبورك له فـي تــفرده فـي طريـق طلبـه ، فلزمه و استـقام عليه ، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى اللـه ورسـوله ، ومقتـت نفسـه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافـقه في سبيله " [3]

فكذلك البرهان الذي يعطيه المسلم علامة لصدقة .

و كذلك حقاً تـفـعـل الأشواق حين تصدق . إ

ن صاحبها حينئذ يأبى إلا الهجرة والانضمام إلى القافـلة .

ويذر كل رفيق يثبطه ويزين له إيثار السلامة ، إلا داعية يبثه همه ، ويتعاون معـه علـى السـير في طريق الجهاد ، ويعلمه علم البذل و فقه الدعوة والتبشير .

فحيهلا إن كنت ذا همة فـقـد **** حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

ولا تـنـتـظر بـالسيـر رفـقـة قاعد **** و دعه فـإن العزم يـكـفـيك حاملا

فينتـفض ، ويهجر كل قاعد ، ويهـاجر مـع المهـاجرين إلـى اللـه ..... ويخطـب بـه ابـن تيميـة فيقول ، ويصف له الطريق و اضحاً : " الحرية حرية القـلب ، والعبودية عبودية الـقـلـب " [4]

فـيـطرح أغلال الشهـوات وحب الأموال عن قلبه ويصبح حراً , ويعود يأبى المنخفض الخبت ، ويرفض أن تواريه الوديان ، ويبتغي المرتـفـع العالي .

ومن أراد ذلك ارتـقى سلم الارتـفاع والسمو : الجهاد ، و فـقه الدعوة .

قال تعالى : { يـرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات } .

" وقـد أخبـر سبحانه في كتابه بـرفع الـدرجات فـي أربعـة مواضـع . أحـدها : هـذا . والثـاني قوله : { إنما المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تـليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقـون * أولئـك هـم المـؤمنين

---

[1] مفتاح دار السعادة 1/35 .
[2] ديوان الأسرار و الرموز /39 .
[3] مفتاح دار السعادة 1/46 .
[4] مجموع الفتاوي 10/186 .

حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم } . والثالث قوله تعالى : { ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى } . والرابع قوله تعالى : { وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة و رحمة } .

فهذه أربعة مواضع ، في ثلاثة منها : الرفعة بالدرجات لأهل الايمان الذي هو العلم النافع و العمل الصالح . و الرابع : الرفعة بالجهاد ، فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم و الجهاد " [1]

ولا تصل إلى هذا العلم وهذا الجهاد إلا بهمة ، ومن ثم كانت الهمة باب الدخول ، فمن امتلكها لان له كل صعب ، واستطاع أن يعيد هذه الأمة إلى الحياة مهما ضمرت فيها معاني الإيمان .. كما قال إقبال :

همم الأحرار تحيي الرمما **** نفخة الأبرار تحيي الأمما

و بالمقابل جعل رحمه الله : كل داء في سقوط الهمم .

و كذلك أمر المسلمين حين ضاق اليوم ، لا يفرجه ويوسعه إلا أصحاب الهمم العالية فحسب . ولذلك كان من تعاليم الإمام حسن البنا : " أن تستصحب دائماً نية الجهاد وحب الشهادة ، وأن تستعد لذلك ما وسعك الاستعداد " , " و أن تعتبر نفسك دائماً جندياً في الثكنة تنتظر الأمر " [2]

وإنه لمعنى يفقهه من ذاق العلو ، محجوب عمن يطلب السلامة .

قلت للصقر وهو في الجو عال : **** اهبط الأرض فالهواء جديب

قال لي الصقر : في جناحي وعزمي **** وعنان السماء مرعى خصيب [3]

وهذا المرعى لا شك يجهله الأرضيون .. !

قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض } .

" إنها ثِقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، و تصورات الأرض . ثِقلة الخوف على الحياة والخوف على المال و الخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع . ثقلة الدعة والراحة والاستقرار . ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب . ثقلة اللحم والدم والتراب . والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه : اثاقلتم - وهذه قراءة حفص , وهي أبلغ تصويراً من القراءات التي ورد فيها : تثاقلتم - وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل ، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل ، ويلقيها بمعنى ألفاظه { اثاقلتم إلى الأرض } ومالها من جاذبية تشد إلى أسفل و تقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق .

أن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان و تغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة ، وتطلع إلى الخلود الممتد ، وخلاص من الفناء المحدود : { أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل } , وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله إلا و في هذه العقيدة دخل ، وفي إيمان صاحبها بها وهن

[1] مفتاح دار السعادة 1/50 .
[2] رسالة التعاليم ، المجموعة /24 .
[3] لعبد الوهاب عزام في ديوان المثاني / 35 .

. لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق) . فالنفاق – وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال – وهو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله ، { وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل } .

و من ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد : { إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شيء قدير } . والخطاب لقوم معينين في موقف معين ، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله . والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو عذاب الدنيا . عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات و استغلالها للمعادين ، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس و الأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح و الجهاد ، و يقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء " [1]

لذلك رأى المودودي ضرورة الصراحة , فحسم أمر الهمة بألفاظ يظن القارئ أنها خشنة فقال : (من دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية و القلبية من النوع الأعلى من أفراد أمتنا هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية ، جاهدون في سبيلها ليل نهار ، ولا يقبلون في السوق إلا على من يساومهم بأثمان مرتفعة , و ما بلغوا من تعلقهم بالدعوة إلى الاستعداد للتضحية في سبيلها بمنافعهم ، بل ولا بمجرد إمكانيات منافعهم . فإذا كنتم ترجون ، معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية ، أن تتغلبوا في الحرب على أولئك المفسدين في الأرض الذين يضحون بالملايين من الجنيهات كل يوم في سبيل غاياتهم الباطلة ، فما ذلك إلا حماقة) [2]

وبعد .. فإنا لا زلنا نعطيك جمهرة من أبلغ القول وأحسن الكلام , وقد قال الزاهد الثقة يحيى بن معاذ رحمه الله أن "الكلام الحسن حسن ، وأحسن من الكلام : معناه وأحسن من معناه : استعماله" فقم إلى استعماله يرحمك الله :

وخل الهوينا للضعيف ولا تكن **** نؤوما فإن الحزم ليس بنائم

وهذه كتيبة الحق قد دنت منك في سيرها بنشيد هادر :

قد نهضنا للمعالي و مضى عنا الجمود

و رسمناها خطى للعز و النصر تقود

فتقدم يا أخا الإسلام قد سار الجنود

و مضوا للمجد إن المجد بالعزم يعود [3]

و كأنك قد أصغيت ، و استدركت قعودك ، و عفت مساعيك لاحراز الترقيات الدنيوية جانباً ، وآمنت بأنها آتية إليك دونما جهد وحرص . ثم كأنك أخذت مكانك في الكتيبة السائرة ، و بدأت تنشدهم مبايعاً :

مهما عتا الأقزام والأعبد

---

[1] في ظلال القرآن 10/223 .
[2] تذكرة دعاة الإسلام /56 .
[3] لوليد في أغاني المعركة 106 .

و لوحوا بالـقـيد أو هددوا
عن نصرة الإسلام هل أقعد
لا ، سوف أبقى دائماً أنشد
بفجره لا بد يأتي الغد [1]

11- الـعـبــد الـحُــر

إن مسلماً نودي بالسير مع الهمم العالية ، فانـتـفــض ، و أفـلــت مـن قــيود الأرض ، وحلـق بجناح العزة : هـو مسلم حري به أن يتم انتـفاضتـه بخطوة تميـز واضحة .
أو كما قال سيد رحمه الله : إن " أولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج و يتــفرد ، ولا يتـلـقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم ، كيما يظل المنهج نظيفاً سليماً ، إلى أن يأذن اللـه بقيـادته للبشـرية مـرة أخـرى " [2] ... وهـذا يعنـي قيـام مفاصـلة شـعورية وفكرية في ضمير المسلم ، يـنـفـصل فيها التحديد الإسلامي الواضح للمعاني الثلاثة المهمة المكونة لكل منهج ، وهي : معنى الوطن ، ومعنى الحاكم ، ومعنى الدستور ، عـن الاطلاقـات الجاهلية في تـفسيرها ، وعما بعد الإطلاق من اختلاف اجتهادات العـقـول . فالأمة الإسلامية قد حدد الله تعالى مقوماتها ، و جعل : " الجنسية فيها هي العقيـدة . والـوطن فيهـا هـو دار الإسلام . والحاكم فيها هـو الله . والدستور فيها هو القـرآن .
هذا التصور الرفيع للدار و للجنسية و للقرابة هو الذي ينبغي أن يسـطر علـى قلـوب أصـحاب الدعوة إلى الله ، و الذي ينبغي أن يكون من الوضـوح بحيـث لا تختــلط بـه أوضـار التصـورات الجاهـلية الدخيلة ، ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية . الشرك بالأرض ، والشرك بالجنس ، والشرك بالقوم ، والشرك بالنسب ، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة " [3]
وحملة الإسلام إنما ينطلقون بهـذا المفهـوم الإسـلامي الواضـح ، ويعلنـوه ، دونمـا ملاطفـة لأفكار الكـفـر الأرضية ، ولا مهادنة ، ولا محاولة استرضاء . وإنه لأمر جازم من اللـه لهـم أن : { ادعـوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون } .. " ولن يرضى الكافرون من المـؤمنين أن يخلصوا دينهم لله وأن يـدعوه وحـده دون سـواه ، ولا أمـل فـي أن يرضـوا عـن هـذا مهمـا لاطفوهم أو هادنوهم أو تـلمسوا رضاهـم بشتى الأساليب . فليمض المؤمنون في وجهتهــم ، يدعون ربهـم وحـده ويخلصـون لـه عـقــيدتهم ، ويصـفون لـه قــلوبهم . ولا عليهـم رضـي الكافـرون أم سخطوا ، وماهـم يوماً براضين " [4]

---

[1] لوليد في أغاني المعركة 76
[2] في ظلال القرآن 4/21 .
[3] معالم في الطريق /146 .
[4] في ظلال القرآن 24/ 60 .

فما دامت هذه النتيجة حتمية ، وأن الكافرين لن يرضوا عن المؤمنين ، فليسلك الدعاة إذن ما يناسبها من مقدمات ترد على تمرد الكفر و رفضه الإيمان .
ولن يكون هذا الرد غير التميز ، و الانفصال عنه .
طالما أنه ليس هناك لقاء ، فإن المنطق يقتضي الانفصال إذن , كما فاصَلَ النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش في العهد المكي ، و كما فاصل كل القبائل بعد الهجرة . ولم تكن تلك المفاصلة النبوية الكريمة مجرد اضطرار لجأ إليه في حقبة تاريخية تبدو لنا آخذة دورها في تسلسل تاريخ الدعوة النبوية ، و إنما كانت حقيقة إيمانية و دلالة نعمة ربانية ، من شأنها أن يلتفت لها المؤمنون . و تلمس هذا في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكرهم بها ، و يتخذها عاملاً تربوياً للذين معه ، فيقول لما صلى بهم يوماً صلاة العشاء قريباً من نصف الليل : (أبشروا أن من نعمة الله عليكم أنه ليس من الناس أحد يصلي هذه الساعة غيركم) [1] , وذلك " قبل أن يفشو الإسلام في الناس " [2] كما يقول الراوي .
إنه جعلها بشرى ونعمة ربانية ، وكذلك تربى نفوس المؤمنين على معاني الاستعلاء ، وتوكيد إلحاحهم في تحدي الجاهلية كلها مهما فشت وعمت وانتشرت وكثر أصحابها , ومهما قل عدد المسلمين وانحصروا في دويرة صغيرة ، كما كانوا في دويرة المدينة ومن حولهم هذه الجزيرة العربية الواسعة الأطراف ، الكثيرة القبائل .
والمس عظم أثر هذه التربية ، وتحولها إصرارا وثباتاُ في الدين ، وتجديد عزم على المضي ، حين يقول من سمع هذه البشرى : " فرجعنا فرحين بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم " ... فتصور هذه الدويرة الإسلامية المتميزة في الجزيرة الكافرة . كانت هناك طليعة إسلامية " تزاول نوعاً من العزلة من جانب ، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة " [3] , وهي في الحقيقة استمرار للمفاصلة التي كانت في العهد المكي ، فظهرت في المدينة بصورة كاملة واضحة . و ما كانت نفوس المسلمين لتصبر في المدينة على لوازم هذه المفاصلة لولم تكن قد ربيت قبل الهجرة تربية صلبة عميقة على أولوياتها ومقدماتها ، فيومها : " في مكة ، لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة ، كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها ، وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين " [4] .. كان " الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين ، هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ، والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبية المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع " [5] , فلما تجلى هذا التميز بصورة أوضح في المدينة ، صار المجتمع الإسلامي مناراً واضحاً في تلك

---

[1] صحيح مسلم 2/117 .
[2] صحيح مسلم 2/115 .
[3] معالم في الطريق /9 .
[4] في ظلال القرآن 9/280
[5] في ظلال القرآن 9/280 .

الصحراء ، يأوي إليه الهائم والمتشكك ، ومن يحتدم في قلبه الصراع بين الإيمان والكفر الموروث .

فلما اتسع المجتمع الإسلامي ، وانتصر ، ودانت كل الجزيرة بدين الله : استمرت هذه الحاجة إلى مفاصلة بقايا الجاهلية المتماثلة ببقايا النفاق واتباع الشهوات .

وهي مفاصلة ثانية ، واجبة أيضاً . فكما أن المفاصلة الأولى أفادت في إيجاد عزة الإيمان في نفوس المفاصلين ، وفي جعل المدينة مناراً يأوي إليه الحائر ، فإن المفاصلة الثانية كانت ضرورية للحفاظ على نقاوة جهاز دولة الإسلام ، المحافظ على سمات حكمه وفقهه وتربيته وفتوحة . ومن هنا دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى هذه المفاصلة الثانية بعبارة جامعة رائعة فقال : (إن لله عباداً يميتون الباطل بهجره ، ويحيون الحق بذكره) [1]

وقد استعمل كلمة الهجر للدلالة على المفاصلة التي نعنيها . وهذا يعني أن عنصر النفاق و ا تباع الشهوات كلما زاد في المجتمع ، زادت هذه الحاجة إلى هذا النوع الثاني من المفاصلة ، بعملية طردية ، ليبقى الباطل باطلاً مشاراً إليه بأصبع الاتهام ، و لئلا يحيله التقادم إلى حق موهوم في ذهن الذين لا يعون ، فينطلي زوره ، و ينسى الناس اعوجاجه ، و لئلا تستسيغه النفوس من بعد ، حين يطول الأمد .

و لذلك فإن الدعوة الإسلامية اليوم لا بد لها إزاء زيادة النفاق و الفسق و اتباع الشهوات في المجتمع الحاضر من هذه المفاصلة ، و من هذا التميز ، بشكل واضح صريح ، لتبقى الصورة الإسلامية جلية واضحة بدورها ، يمكن أن ينظر إليها من يبتغي النظر إليها ، ممن تحفزهم كلمات الدعاة لمحاولة اكتشاف أبعاد هذه الصورة ، و التفتيش عنها و تلمس مثل تطبيقي لها .

و الحقيقة أنه و إن افتقد الدعاة في هذا القرن صورة حكم إسلامي يصلح مثلاً لتطبيق الإسلام ، إلا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى في بعض أشخاص من الدعاة ، تتضح فيهم معاني الإسلام ، ويكتسبون من هيبته ، و يبلغون الذورة في الإيمان والتجرد وتطبيق السنة النبوية الشريفة . وهذا هو معنى (القدوة) في صورتها البسيطة .

إن وجود (القدوة الإسلامية) يعني وجود شخص يدرك الناظر إليه أنه مستقل في فكرته و عقيدته ، و سكناته و حركاته ، عما حوله ، منفصل عنهم ، تميزه الأبصار قبل المعاملة ، بما تعلوا وجهه من معالم السكينة و الهيبة و الحزم التي شاء الله أن ينفرد بحيازتها المسلم دون غيره ، فيعوض بذلك عن صورة الحكم الإسلامي المفتقد ، ويكون بديلاً لها ، وبرهاناً على أن الإسلام قادر أن ينتج مثل هذه النماذج الإنسانية الرفيعة ، أو بالأحرى : يكون برهاناً على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير الإسلام .

و أبو القاسم الجنيد رحمه الله يعبر عن هذا الانفصال للقدوة الإسلامية بعبارة (الحرية عما سوى الله) ، أي ليس بينه و بين ما سوى الله رابط أو قيد أو نسب أو ميل أو رغبة ، بل هي الحرية بمدلولها الذي يفهمه كل حر ، فيقول : " لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً " [2] ويعبر مرة أخرى عن هذا الانفصال بأنه "عبودية الأحرار" أو " حرية العبيد" ،

---

[1] كتاب الخراج لأبي يوسف 13 .

[2] مجموع فتاوي ابن تيمية 10/598 .

فيصوغ سطراً بليغاً رفيعاً يغني عن عشر مجلدات ، ويقول : " إنك لا تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية " .

فلأن الإسلام كله عبودية لله تعالى ، فإن العبد التام العبودية الذي سماه الجنيد , هو وحده الحر في هذا الوجود دون غيره من أسارى الشهوات واجتهادات العقول القاصرة , وهذا التعبير الجميل ورثه الجنيد عن أفضل الزهاد العباد : الفضيل بن عياض رحمه الله ، إذ أبرز الفضيل بمقابل الحرية مما سوى الله : واجب المسلم في تجريد الربانية له واطراح كل ربانية لأحد من الخلق يريد أن يفرضها عليه بثمن مادي ، أو بالقسر و الاكراه ، فيقول الفضيل : " والله ، ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية " [1] .

فالمسلم يفرد الله بالعبادة ، و إفراده بالعبادة يقتضي أن يعلن بصراحة ووضوح براءته مما يعبد الغير ، ومما يشرعون لأنفسهم ، و يجهر بذلك مفاصلاً ، كما فاصل نبي الله هود عليه السلام قومه بقوله : { إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ }

" إنها انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم – وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة ، وقد انبتّت بينهما وشيجة العقيدة . وهو يشهد الله على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم ، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم ، كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره و خوفه أن يكون منهم . و ذلك كله مع عزة الإيمان و استعلائه ، و مع ثقة الإيمان واطمئنانه ! وإن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى ، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي ، و يروا في الدعوة إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس ! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراه هذه الثقة ، فيسفه عقيدتهم و يقرعهم عليها و يؤنبهم ، ثم يهيج صراوتهم بالتحدي لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم ، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم . إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد ، و لكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل و الأسباب .

إنه الإيمان ، و الثقة ، و الاطمئنان . و الإيمان بالله ، و الثقة بوعده ، و الاطمئنان إلى نصره ، الإيمان الذي يخالط القلب ، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة ، لأنها ملء يديه ، وملء قلبه الذي بين جنبيه ، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب ، إنما هي حاضر تتملاه العين و القلب " [2]

{ إن ربي على صراط مستقيم } ..

" فهي القوة والاستقامة والتصميم . وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي . إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود عليه السلام

---

[1] مجموع فتاوي ابن تيمية 10/599 .
[2] في ظلال القرآن 12/97، 98 .

في نفسه من ربه . أنه يجد هذه الحقيقة واضحة . إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر : { ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها } ، وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها و يقهرها بقوته قهراً ، فما خوفه من هذه الدواب و ما احتفاله بها ، وهي لا تسلط عليه - إن سلطت - إلا بإذن ربه ؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه ؟ إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة نفسه ، لا تدع في قلبه مجالاً للشك في عاقبة أمره , ولا مجالاً للتردد عن المضي في طريقه . إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبداً " [1] .

وقد فقه الإمام البنا رحمه الله هذه النظرية في المفاصلة ، فنادى بوجوب تربية النشء وفق معانيها ، وأوضح أن مستقبل الإسلام إنما يعتمد على " هذا النشء الجديد ، فأحسنوا دعوته ، وجدوا في تكوينه ، وعلموه استقلال النفس والقلب ، واستقلال الفكر والعقل ، واستقلال الجهاد و العمل , واملأوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن ، و جندوه تحت لواء محمد ورايته ، و سترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه و يسعد غيره " [2] ... فهو قد عبر عن المفاصلة بالاستقلال ، كما عبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنها بالهجر . فاستقلال النفس والقلب هو المفاصلة الشعورية في الضمير ، و العزة و الاستعلاء .

و استغلال الفكر هو عدم خلط الشريعة بالتصورات الأرضية المبتدعة التي أضلت الأحزاب . و استقلال العمل هو التميز في الصف ، و ترك الأحلاف . وكما أنها مهمة هؤلاء الدعاة في تربية النشء ، فإنها مهمتهم في وجوب الانتباه لنفوسهم ، والثبات على هذه المفاصلة . أو كما قال الإمام : " لا تصغروا في أنفسكم ، فتقيسوا أنفسكم بغيركم ، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله ، و منهاجها من سنة رسوله ، بغيرها من الدعوات التي تخلقها الضرورات ، و تذهب بها الحوادث و الأيام " [3] . ومن مكملات ذلك و ضروریاته حفظ صفاء الابتداء و نقاوته ، و كما يجب على الداعية أن يحفظ لمن يدعوهم الهمة ، و يسيرهم مع الهمم العالية ، فإن عليه أن يحفظ لهم صفاء الابتداء ، فإن الأيام الأولى للسير في طريق الدعوة تحسم مدى الصفاء مثلما تحسم منزلة الهمة .

إن من يفتح عينه على المفاهيم الإسلامية النقية المستمدة من القرآن و السنة فحسب غير المشوبة بترهات غير إسلامية فإنه يبدأ وينشأ ويشب و يشيب و يموت على هذه المفاهيم ، و من سقي المخاليط ذات الشوائب صعبت عليه التنقية بعد .

و لقد وعى أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر آباذي المتوفي سنة 367 هـ هذا المعنى أروع الوعي فقال :

" ما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء , فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء " .

فأحسن البداية و أتقنها يا داعية الإسلام .

---

[1] في ظلال القرآن 12/97، 98 .
[2] تحت راية القرآن ، المجموعة / 319 ، 321 .
[3] تحت راية القرآن ، المجموعة /319 ، 321 .

12- قــصـص مـن لـهـو الـدعـاة

ما كان لأهـل الحركة الإسلامية و من حولهم من ناشئة الابتداء أن يتخـلــفوا عـن السـير نحـو أفراح الآخرة ، ولايرغبوا بأنفسهم عن حاجات الدعوة ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصــب ، ولا غبار في سبيل الله ، ولا يتكلمون كلمة تغيظ الأحزاب الأرضية ولا ينالون من ملحـد نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ؛ ولا ينفقون نـفقة من التعب صغيرة أو من الهول كبيرة ، ولا يجوبون محلة أو مدرسة أو جامعة أو مصنعاً إلا كتـب لهـم ، ليجزيهـم الله أحسن ما كانوا يعملون .

و كيف يلتـذ داعية براحة وهـم قد لقنوه من أول يوم أن ينشد :

في ضميري دائماً صوت النبي **** آمراً : جاهد و كابد و اتعب

صائحاً : غالب و طالب و ادأب **** صارخاً : كن أبداً حراً أبي

و كيف يميل إلى استرخاء ، و أصحابه يهتـفون :

نَبني ، ولا نتكل **** نفني ، ولا ننخذل

لـنا يـد والـعـمـل **** لـنـا غـد والأمـل

إن حرية الداعية ، والأمل الذي يستيقنه : يدفعان به دفعاً إلى البذل السخي .

- **علو في الحياة :**

حرية .... و أمل

حرية تكسر قيود الشهوات

و أمل بالأجر ، و ثقة بالنصر

كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في ميزان التصارع العقائدي ، كانتا دوماً في تاريخ التوحيد الطويل ، تأخذان التعب من أجيال الدعاة من النبيين والصديقين والراشدين و التابعين و من لحقهم بإحسان على مر القرون ، فكلهم بالتعب كانوا يفرحون يأبون إلا العلو في الحياة ونحن إن شاء الله بهم لمقتدون .

كان تعبهم يتمثل أحياناً بحركة يومية دائبة في الإنذار والتبشير ، والتجميع والتبصير ، أو سهراً على رعاية مصالح المسلمين . و يتمثل أحياناً في انكباب على التعلم واجتياز المفاوز لحيازة حديث أو كلمات فقه .

ويتجسد في أخرى قتالاً ، وتحفيزاً دائماً لجهاد وعلو موت . وفي أخرى إشغالاً للفكر في التخطيط .

وفي أخرى إشغالاً للفكر في التخطيط .

فإن أخذوا راحة ، واستلقوا على ظهورهم : لبث ذهنهم يصطاد الخاطر .

وكل ذلك حكى التاريخ ، ليتعلم الدعاة اليوم .

- **نطق بالليل و النهار :**

فأول من يطالعنا : الأنبياء عليهم السلام . كان لسانهم ناطقاً بالليل و النهار ، و الإعلان و الإسرار . قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام : { قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً } , ثم قال : { ثم إني دعوتهم جهاراً ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً } .

- **ونطق أثناء خطوات الهجرة :**

" والواقع أن الداعي إذا كان صادقاً في دعوته منشغلاً بها لا يفكر إلا فيها ولا يتحرك إلا من أجلها ولا يبخل عليها بشيء من جهده ووقته لم يشغله عنها شاغل أبداً حتى في أحرج الساعات وأضيق الحالات وأدق الظروف ، وهكذا كان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فعندما هاجر إلى المدينة و معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقي في طريقه بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة ، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا . وهذ يدل أنه عليه الصلاة والسلام لم يغفل عن الدعوة إلى الله حتى وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينة و القوم يطلبونه " [1]

- **و نطق في السجن :**

---

[1] أصول الدعوة /284 .

" ويوسف عليه السلام عندما دخل السجن مظلوماً لم يشغله السجن و ضيقه عن واجب الدعوة إلى الله ولهذا فقد اغتنم سؤال السجينين عن رؤيا رأياها , فقال لهما قبل أن يجيبهما ما أخبرنا الله به : { يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار } " [1]

- الراشد يمنع النوم :

و قاربهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه حتى قال عند وفاته : " والله ما نمت فحلمت ، ولا توهمت فسهوت ، و إني لعلى السبيل ما زغت " [2] . يعني أنه قد شغلته حروب الردة و الفتوح وأرهقه إرساء جهاز الدولة ، حتى أنه ما كان ليستغرق في نومه ليتاح له أن يحلم ، و ظل يزاد بعد النبي صلى الله عليه وسلم في الصديقية ليهبه الله تعالى يقظة أثناء هذا التعب تبعد عنه الوهم والسهو .

- الترابي ..... !

ويترجم عبدالله بن عباس رضي الله عنه انغماسه في صورة جمع بين التواضع والصبر على مشقة التعلم وجمع الحديث ، حتى أن الريح لتسفي عليه التراب ، يرجو بذلك أن يستنشق نسمات الجنة ، ويجتاز الصراط بلا حساب .

واسمعه يروي ما كان منه ويقول : (أقبلت أسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحديث , فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابه ، تسفي الريح علي التراب ، فيخرج فيقول لي : يابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ ألا أرسلت إلي فآتيك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث) [3] . ولو شاء أن يوقظوه لأيقظوه له مع الفرح ، ولكن الهمم العالية تطرب لصفير الرياح ولفحات التراب .

- هواية رفع الأثقال

والداعية اللبيب يسابق أصحابه لحمل كل ثقيل من الأمور ، فيكون يوم الجمع صاحب الميزان الثقيل ، كما تسابق النخعيون يوم معركة القادسية . قال أحد الصحابة منهم : " أتينا القادسية ، فقتل منا كثير ، و من سائر الناس قليل ، فسئل عمر عن ذلك فقال : أن النخَع ولوا عِظَم الأمر و حدهم " [4]

وما كان أحد ممن حضر القادسية إلا و أبلى ، و لكن الدعاة إلى الله لهم هواية التسابق في رفع الأثقال .

- حصن التربية الأسدية

---

[1] أصول الدعوة /284 .
[2] الخراج لأبي يوسف /11
[3] طبقات ابن سعد 2/368 .
[4] الاصابة 1/28 .

والذروة يعلوها التابعي العابد الفقيه المحدث الجليل أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي ، نتاج تربية الأربعة الراشدين و ابن مسعود و سعد بن أبي وقاص و غيرهم ، فإنه عاف التجارات و البيوت و بنى له في الكوفة حصناً صغيراً يسعه هو و فرسه و سلاحه فقط ، و بقي طول عمره متحفزاً للجهاد ، حتى لم يعد يعرف موازين السوق التي يتعامل بها الناس [1] . تجرد حق التجرد ، فأنتج حق الانتاج ذرية تجرد تتبعه ، يعلم الدعاة بذلك طريق إنتاج الرجال باستخدام وسائل الايضاح البصرية المجسدة .

أنتج أبو وائل أمثال : سليمان الأعمش ، و منصور بن المعتمر ، و حصين بن عبد الرحمن ، وعمرو بن مرة ، و غيرهم من فحول المحدثين .

إن من لا يفهم التربية يظن أن بناء هذا الحصن من التكلف و الرياء ، وما هو كذلك .

- ذهب الفراغ ....!

و يموت شقيق الأسدي مع نهاية قرن الخير الأول ، فيبادر الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز إلى ضرب الأمثال . تصفه زوجه فاطمة بنت عبد الملك فتقول : " كان قد فرّغ للمسلمين نفسَه ، ولأمورهم ذهنه ، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه : وصل يومه بليلته " [2] . يضرب المثل بذلك لداعية الإسلام إن أراد أن يصدق دعوته و يؤدي الأمانة .

صدق الداعية : أن يجدد أطوار عمر فيفرغ نفسه للمسلمين ، فلا تجد له حركة دنيوية إلا بمقدار ما توجبه ضروريات إطعام عياله . و يفرغ ذهنه ، فليس فيه إلا تفكر بمصالح الدعوة .

ويتعرض أصدقاءٌ قدماء لعمر ، من أصدقائه قبل الخلافة يوم كان فارغاً ، يودون أن تكون لهم معه جلسة يعيدون فيها الذكريات ، فيقولون : " لو تفرغت لنا " , فيقول : " وأين الفراغ ؟ ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله " [3] ..

يلقنها لمن يدخل الدعوة بعده إذا دعاهم رفاق الأمس إلى قتل الأوقات .

- موفق يجوب بحقيبة العلم راجلاً

ويستمر تلامذة أحمد بن حنبل ، وأتباع مذهبه من بعده ، يضعون وسائل الإيضاح البصرية في الاستخدام التربوي ، فإنهم كما وصفهم الفقيه النحوي ابن عقيل : " غلب عليهم الجد ، وقل عندهم الهزل " [4] .

فمن تلامذته : الحافظ الإمام الفقيه الزاهد المحدث : إسحق بن منصور المعروف بالكوسج ، شيخ البخاري ومسلم وغيرهما . كان يسكن نيسابور بخرسان ، فرحل إلى بغداد ودوّن عن أحمد بن حنبل مسائل في الفقه كثيرة ، و رجع إلى نيسابور ، ثم إنه : (بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن بعض تلك المسائل ، فحملها في جراب على كتفه ، وسافر راجلاً إلى

---

[1] كتاب الثقات لابن حبان /108 .
[2] سيرة عمر لابن عبد الحكم / 146 .
[3] طبقات ابن سعد 5/397 .
[4] ذيل طبقات الحنابلة 1/ 152 .

أحمد ، ثم عرض خطوط أحمد على كل مسألة استفتاه عنها فأقرّ له بها وأعجب به) [1] ... وأحدنا الآن يجلس على أريكته و بجنبه مسند أحمد مطبوعاً محققاً مجلداً مذهباً يتكاسل أن ينظر فيه .

- الحنابلة يحفظون السمت

ويرسم ابن عقيل ، النحوي الفقيه الحنبلي ، صورة الداعية الذي لا تكون خطراته وسبحات فكره - بل أحلامه إذ ينام - إلا في الدعوة ، ويجلي ذلك بقوله : " إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مطالعة : أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح " [2] ... فانظر ، كم ساعة من نهارك و ليلك تضيع سدى ؟

وخلفه الشيخ الزاهد الفقيه محمد بن أحمد الدباهي . قالوا : (لازم العبادة ، والعمل الدائم والجد ، واستغرق أوقاته في الخير .. صَلْبٌ في الدين ، وينصح الإخوان ، و إذا رآه إنسان : عرف الجد في وجهه) [3] .

وهكذا يجب أن تكون دائماً علامة الدعاة سيماهم في الجد ظاهرة في وجوههم ، لا يخطؤها النظر .

ليس لهم نصيب من الهزل و الضحك و البطالة .

- أصحاب الإمام البنا يجددون

وجدد جيل هذا القرن من الدعاة في مصر تلك الصور الرائعة القديمة ، ليبرهنوا أن الإسلام الذي أنتج أولئك لا يزال حياً . يصف الإمام حسن البنا أصحابه فيقول : (قد سهرت عيونهم والناس نيام ، وشغلت نفوسهم و الخليون هجع ، وأكبّ أحدهم على مكتبه من العصر إلى منتصف الليل ، عاملاً مجتهداً ، و مفكراً مجداً ، ولا يزال كذلك طول شهره ، حتى إذا ما انتهى الشهر جعل مورده مورداً لجماعته ، ونفقته : نفقة لدعوته ، و ماله : خادماً لغايته ، ولسان حاله يقول لبني قومه الغافلين عن تضحيته : { لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الله }) [4]

* و علو في الممات .. !

وكما في مصر ، كان من رعيل العراق الأول : أبو صفوان الدباغ صاحب رسالة (مع الناشئة) ، الرسالة الصغيرة البسيطة جداً ، الطريفة جداً .

حدثني الثقة من أقرانه ، قال : (كان مريضاً بالسرطان ، و اشتد مرضه سنة اثنتين و خمسين و تسعمائة و ألف ، فرقد في المستشفى أياماً ، و كأنه أحسّ بلحظات حياته الأخيرة ، فطلب مواجهة قائد الدعوة آنذاك ، فجاءه و معه بعض الدعاة - فِيهِم راوي القصة

---

[1] تذكرة الحافظ للذهبي 2/ 524 .
[2] ذيل الطبقات الحنابلة 1/146 ، 2/361 .
[3] ذيل طبقات الحنابلة 1/146 ، 2/ 361 .
[4] إلى أي شيء ندعو الناس ، المجموعة /129 .

- فأعلمهم بقرب موته ، وشهد أن لا إله إلا الله ، و قرأ شيئاً من القرآن ، و صافح يد القائد ، و أعلن تجديد بيعته و ثباته على هذه الدعوة و حمّلهم السلام إلى من كان من الدعاة آنذاك و إلى من سيلتحق بعد ، ثم أعاد الشهادة و مات من فوره ، بعد تجديد بيعته بقليل) .. رحمه الله ... فتأمل هذه منقبة لا يرزقها إلا من كان توجهه صادقاً في حياته .

وتأمل علو همته . كأنه في قاعة مطار يودع أو على رصيف محطة قطار .

أخ لك سابق غادر الحياة ولعلك لم تولد بعد يحييك ويبلغك السلام ، و يطلب منك الثبات على هذه الدعوة التي جربها في آخر لحظات حياته فوجد لذة السير إلى من أنعم بها على عباده .

إن في ذلك لعبرة تغني اللبيب عن كثير من الكلام المنمق والبلاغة المتكلفة .

حقاً إن الهمم مراتب ، ولا تعلو همة في نهايتها وعند موتها إلا إذا علت في بدايتها .

وقائع وقصص يمرُّ بها الداعية يأخذ منها الدروس والعبر ، والهُمام من يقول : اللهم اجمعنا وإياهم في دار كرامتك .

وكذلك نقصص القصص لدعاة الإسلام لعلهم يقتدون .